
كلانا يسرق
اللحم
سراج النيل الصاوى

مجموعة قصصية

كِلاَنَا يَسْرِقُ اللَّحْم !

سراج النيل الصاوى

إهـداء

إلى أمى الغالية ..

والصابرة

أهديها كتابى هذا

سراج النيل الصاوى

١٨/٨/١٩٩٦

دمعة صديقى

لا أتذكر جيداً متى بدأت صداقتى تقوى معه ... الذى أتذكره أنه كان معى بالسنة الثانية بالابتدائى، ويجلس بجوارى بالفصل ... عرفت منه أنه يقطن بنفس الشارع الذى أسير فيه يومياً ، أثناء عودتى إلى المنزل ، أصبحنا نسير معاً عند العودة من المدرسة .

كانت صحبته ــ عقب انتهاء الدراسة ــ ممتعة ، فكثيراً ما كان يشجعنى على الوقوف أمام واجهات المحلات ؛ لنشاهد ما بها من معروضات ... و قد نقف بين المتفرجين الملتفين حول أحد الحواة ؛ لنشاهد العرض الذى يقدمه .

أحياناً أخرى ، كنا نتقاذف بأقدامنا قطعة من الحجر ملقاة بالشارع نمررها بيننا كأنها كرة ، حيث كانت الشوارع والحوارى ـ فى ذلك الوقت ـ شبه خالية ، وتسمح لنا بمثل هذه الأفعال ، أو نتسابق بالقفز على بلاطات البازلت المربعة ، والمرصوف بها بعض الشوارع ؛ لنعرف من منا قفز المسافة الأطول . فإذا ما وصلنا إلى منزل " سمير " صديقى ، وصعد إلى شقته ، أسرعت أنا بمشية جادة إلى مسكنى دون تلكؤ.

ولعل شخصيتى الجادة ، وشقاوة صديقى ،كانتا السبب فى تلك الألفة بيننا ، وجعلتنا نتجاذب أكثر إلى بعضنا ، وزادت من أواصر الصداقة.

مع مرور الأيام ، أصبحنا لا نكتفى بالصحبة فى الإياب من المدرسة فقط ، فقد اتفقنا على أن ألتقى به فى الصـباح ، واقفاً أمام مسـكنه ، ثم نذهب سوياً إلى المدرسة.

كانت ابنة خالتى ، التى تكبرنى فى السـن ، توصـلنى، وهى متجهة إلى مدرستها، حتى شـارع " العباسـى " بالمنصـورة، بعدها أذهب حيث أجد صـديقى ينتظرنى أمام مسكنه فى هذا الشـارع ، فنسرع بالذهاب سـوياً إلى مدرستنا القريبة والموجودة بالحوّار .

كنت إذا لم أجد صـديقى فى مكانه واقفاً ينتظرنى ، أسـرع إلى شـقته بالدور الأول ؛ لأناديه ، وكثيراً ما كنت أجد باب شقتهم مفتوحاً ، فأرى منه والده ، جالساً يتناول إفطاره على مائدة الطعام الموجودة بالصالة .

كانت والدة سمير . إذا سمعتنى أنادى عليه . رحبت بى ، ودعتنى للدخول ، بينما تحث سمير ليسرع ، وتؤنبه على تأخره الدائم فى ارتداء ملابسه .

ترحيبها بـى وملاطفتها لـى ، جعلانـى أحبها ، وكنت لأطيق صبراً ، لانتظار صـديقى أمام مسكنه إذا ما وصلت مبكراً ، فكنت أسرع بالصعود إلى مسكنه ؛ لاستعجله ، وكثيراً من المرات ، كانت والـدة سمير ، حين ترانى ، تعقد المقارنات بينى وبينه ، والتى كانت نتائجها فى صـالحى دائماً ، فكنت أسعد أنا لذلك .

كانت تقول له دائماً :
. نظف حذاءك يا سمير ، أنظر لحذاء صاحبك كيف يلمع ؟
. صفف شعرك جيداً يا سمير ، أنظر لشعر صاحبك ، وكيف يصففه ؟
. أدخل قميصك جيداً بالبنطلون، ألا ترى كيف يعتنى صديقك بهندامه ؟

فى الحقيقة ، فإن هذه المقارنات ، دفعتنى لكــى يكون منظرى ومظهرى حسنين ، وعملت على أن يبدو حذائى . دائماً . لامعاً وبراقاً ومن أجل ذلك ، وضعت بجيب بنطلونى القصير قطعة من القمـــاش القطيفة؛ لأعيد تلميع حذائى وأنا أصعد السلم لمسكن صديقى ، كى أسمع كلمات الإطراء من " تانت " محاسـن والدة سمير ، والتى كانت تقولها بصـوتها المرتفع بالصـالة أمام والده ، وهو يتناول إفطاره .

لم يكن والده يعقب على كلامها ، اكتفاء منه بأن ينظر إلى ســمير نظرة عدم رضاء .

بالفصل ، رغم جلوسنا بجوار بعض ، كان لكــل منا شخصيته المستقلة ، فأنا لى شخصيتى الجادة ، أما هو فشخصيته يغلب عليها الشقاوة ، والتهكم على زملائنا ، ولشـخصـيتى الجادة ، فقد عيننى الأسـتاذ " حسـين " مدرس اللغة العربية والدين (ألفا) للفصل ، فأقف وقت الراحة بين الحصص بجوار السبورة السوداء ، مهدداً بكتابة أسماء من يحدث ضوضـاء ، كما طلب منى ذلك .

كانت شـــقاوة سمير نصـــيبها التهديد بالعقاب ، التهديد فقد ، وليس العقاب من المدرسين ، وخاصة الأستاذ حسين ؛ مجاملة لزميلهم والد سمير الذى يعمل مفتشـــاً بالتعليم ، وكان سمير يحدثنى عن اعتقاده بأنهم لن يستطيعوا عقابه ؛ لأن والده يفتش عليهم .

أتذكر جيداً حين غضب الأستاذ حسين ، من رد زميلى سمير عليه ، عندما نعته بالغباء ؛ لعدم حفظ بعض النصـــوص المطلوب حفظها ، بعدها سأل الأستاذ حسين تلاميذ الفصل ، قائلاً :

ـ من يعرف منزل سمير ؟

أسرعت برفع إصبعى لأعلى ، وأنا أقول :

ـ أنا ... أنا ... يا أستاذ .

عندئذ كلفنى بأن أبلغ والد سمير ، بأن الأستاذ حسين يرغب فى حضوره إلى المدرسة بشأن أمر يخص ابنه .

بعد انتهاء الدراسة ، سرنا ـ أنا وصديقى ـ صامتين ، ودون أن نتسكع ، كعادتنا ؛ لنرى واجهات المحلات ، أو نتقاذف بأقدامنا قطعة حجر . اعتذرت لصـــديقى ، مبرراً بأننى لم أكن أعرف بأن الأســـتاذ ســـيكلفنى بهذا الأمر . أبدى صـــديقى عدم تخوفه ؛ لأن والده مشـــغول بالتفتيش على المدارس الأخرى ، وأنه يعتقد بأن والده لن يحضر إلى المدرسة .

فى صباح اليوم التالى ، توجهت مبكراً لمنزل صديقى ، أسرعت بالصعود إلى الشـــقة ... قابلتنى " تانت " بترحاب ، كانت كعهدى بها ترتدى ملابس أنيقة ، وتضـــع الأصـــباغ على وجهها ، أتذكرها بأنها كانت جميلة ، والعطر يفوح منها دائماً .

وجهت حديثى ـــ لأول مرة ـــ لوالد سمير ، الذى كان جالساً يتناول إفطاره .

ـ صباح الخير يا عمى ... الأستاذ حسين مدرس " العربى " يريد من حضرتك الحضور لمقابلته اليوم بالمدرسة .

ـ لماذا ؟

ـ لا أعرف ... طلب منى أن أبلغ حضرتك بذلك .

كانت مهمة صعبة بالنسبة لى ... سرنا ـــ أنا وصـــديقى ـــ بجـــدية إلى المدرســة ، كما فعلنا أمس عند انصــرافنا منها ، أتذكر يومها كان يبدو على صديقى الوجود وشرود الفكر .

فى اليوم الذى يليه ، توجهت صـباحاً ـــ كالمعتاد ـــ إلى منزل سمير ؛ لأصـطحبه إلى المدرسة ، علمت بأنه انصرف مبكراً ، أسرعت الخطى ، ربما ألحقه ، وهو فى الطريق إلى المدرسة ، لم أتمكن ..

. تقابلت معه بحوش المدرسة ... كان حزيناً ... سألته مستفسراً عن السبب فى عدم انتظارى أمام منزله ... ذكرت له بأن والدته أخبرتنى بنزوله مبكراً ...

انفجر صديقى فى وجهى غاضباً ، وهو يقول :

. إنها ليست أمى ... ليست أمى ... إنها زوجة أبى ...

طلق أبى أمى من أجلها ... و تزوجها منذ مدة قصيرة .

حكى لى سمير ماحدث ، قال :

ـــ بعد أن قابل والدى الأستاذ حسين أمس .. كان يمكن أن يكتفى والدى بتأنيبى ... كما يحدث كثيراً ... لولا هى ... فقد نصحت والدى بضرورة معاقبتى ؛ حتى أنجح ، ولا أنحرف .. وسمع والدى كلامها ... وضربنى ... ضرباً كثيراً ... حتى بكيت من الألم .

أتذكر جيداً بأننى ظللت صامتاً فترة طويلة ، بعد سماعى لحديث سمير ، فلم أستطع أن أتحدث معه ... فقد كان الألم يعتصرنى ، حين رأيت دمعة صديقى تترقرق على خده ..

لكنى فهمت ـ وقتها وأنا فى هذه السن الصغيرة ـ لماذا هى كانت تؤنب سمير دائماً ، وتعقد المقارنات بينى وبينه ...

لقد انتهت صـورتها الجميلة من مخيلتى ... ولم أعـد بعدها أحب "تانت" محاسن ... بعد أن رأيت دمعة صديقى .

نُشِرت هذه القصة بمجلة " إيجيترانس " العدد الثانى ١٩٩٥م.

قلم الحبر

لم نكن فى طفولتنا ــ نحن جيل الشعر الأبيض ــ مثل أطفال هذه الأيام ... كنا مثلاً ... نقف أمام الراديو الخشبى الكبير ، مشدوهين ونحن نستمع إلى صوت المقرئ ينبعث منه ، ونتعجب، ثم نسأل أنفسنا :

.كيف دخله الشيخ ؟!

وإذا ما شاهدنا ـ ونحن بالسينما ـ قطاراً مقبلاً علينا ، نخشى أن يدوسنا ، ونمسك بأيدينا فى المقعد ، ثم نغمض أعيننا خوفاً!.

أما الآن ، فإننى أتأمل أطفال هذا الجيل ، وهم يتعاملون مع التليفزيون والفيديو، ويشاهدون الأفلام الخاصة بالمغامرات، وبها مشاهد العنف الدموى والمخاطر ، فلا أجد أية علامات للخوف أو الهلع تنتابهم ، أو ترتسم على وجوههم ... فأتعجب !!.

كانت حياتنا أصعب ـ فى طفولتنا ـ فى كل شئ ... وأتذكر كيف كنت أقضى وقتاً طويلاً ، عقب عودتى من المدرسة، وأنا أغسل يدىّ بالماء والصابون عدة مرات؛ لإزالة آثار الحبر من أصابعى .. نعم كان هذا يحدث كل يوم ، عقب عودتى من المدرسة ، فلم يكن قلم الحبر الجاف ـ الذى ينعم به أطفال هذه الأيام ـ قد أُخترِع بعد.

فقد كان يوجد أيامنا ـ بالقمطر الذى يجلس عليه التلاميذ ـ محبرة مستديرة ، يملؤها الفرّاش ــ كل أسبوع تقريباً ــ بالحبر الأزرق ، أما نحن التلاميذ فكان مع كل منا ـ داخل حقيبته ـ ريشة ذات سن من النحاس
يمكن تبديله إذا تلف .. ومع حرص التلاميذ الشديد ألا تتسخ أصابعهم ، عندما يكتبون بالريشة ، إلا أن اتساخ الأصابع بالحبر كان سمة غالبة لتلاميذ جيلنا ... بل وأحياناً اتساخ ملابسنا أيضاً !.

أتذكر ذلك اليوم ، حين أراد والدى ، أن يطمئن على مدى تعلمى للكتابة والقراءة ، وقد سره أن وجد خطى جميلاً ــ كما قال ــ وأننى أكتب على السطر ، فلم تنزل الكلمات لتشرب من البحر ، كما كانوا يقولون لنا بالمدرسة وقتها ... سره ذلك ، و وعدنى بأن يشترى لى قلم حبر ... لم أصدق نفسى وقتها ، فهل سأمتلك قلماً مثل الكبار ؟
مثل والدى ، و مُدرِّسيّ المدرسة ؟

و وَفَّى والدى بوعده ، واشترى القلم ، ومعه زجاجة حبر ، وعلمنى كيف أملأه .

كانت فرحتى بالقلم غامرة ، خاصة عندما كنت أجلس ؛ لأستذكر دروسى ، فأبدأ بتفريغ القلم من الحبر الذى بداخله ، ثم أعود فأملأه ثانية ... وأفعل ذلك مُنتشياً عدة مرات ... فضلاً عن إحساسى بالزهو حيث كنت التلميذ الوحيد بالفصل ، الذى يكتب بقلم حبر ، بينما جميع زملائى يكتبون بالريشة !.

وكان الوقت الممتع لى ـ أثناء عودتى من المدرسة أنا وبعض زملائى ـ حين كنت أشـــاهد أقلاماً للحبر تعرضـــها إحدى المكتبات ، فكنت أقف أنا وزملائى ؛ لأريهم أى الأقلام منها يشبه قلمى الحبر ذا الغطاء المعدنى اللامع !.

لن تُقَدِّروا مدى ســعادتى بذلك القلم ... لقد كنت فَرِحاً به جداً ، وكنت به فخوراً ، فلم أضـــعه فى الحقيبة ... بل كنت أضـــعه فى جيب "الجاكتة" الخارجى ، أو أعلقه بفتحة "البلوفر" ؛ كى يراه الجميع !.
و ذات يوم كان الجو معتدلاً ، فتشـــجعت أنا و زملائى ، أثناء عودتنا من المدرســة ، بأن نســير على كورنيش النيل ؛ لنقذف المياه ببعض الأحجار ، فتحدث علامات دائرية ، كنا نتنافس من منا الذى يحدث دائرة أكثر اتساعاً.

وأثناء لعبنا هذا ، شاهدت ثلاثة من الصبية ، أكبر منا سناً ، ملابسهم ممزقة ومتســخة ، وكانوا يجلســون على ســور الكورنيش بالقرب منا ... وإذا أحدهم يشـير بإصـبعه نحوى ، فيهجم علىَّ الثانى ، ويمسـكنى من صـدرى ، ويوجه حديثه لمن أشار نحوى ، قائلاً :
ـ هل هذا الولد هو الذى ضربك ؟

أسرعت بالتوسل إليه ، وأنا أقول له ـ خائفاً ـ :
ـ لأ لستُ أنا ... أنا لم أتشاجر مع أحدٍ أبداً ...
و يُجيبه من أشار بيده نحو قائلاً :

. لستُ متأكداً ... لكنه يُشبِهَهُ .

عندئذٍ تدخل الصبى الثالث . أكبرهم سناً . قائلاً لزميله :

. دعه فى حاله ، مادام أنه غيرُ مُتأكد من الشخص الذى ضربه .

ثُمَّ وجه حديثه لى ، وهو يأمرنى :

. أنت يا ولد ... اجر بعيداً ... بسرعة ...

حمدتُ الله على ذلك ، وأسـرعت أنا و زملائى ، بينما أنا أتعجب من هذه المصيبة التى نزلت علينا !.

لم نكمل السير فى شارع الكورنيش ، وأدلفنا إلى الشوارع الجانبية صامتين ، قاصـدين منازلنا . لم نكد نسـير قليلاً ، إلا و وجدنا مكتبة ... فدعوت زملائى ـ كما تعودتُ ـ لمشاهدة الأقلام التى تعرضها ... ووجدت بها قلماً يشـبه قلمى ... صـمتُ لحظة ثم أعلنتُ زملائى فرحاً ، وأنا أشـير إلى القلم المعروض بالمحل :

. إنه يشبه قلمى تماماً!.

و مددتُ يدى نحو صـدرى ، حيث فتحة " البلوفر " ؛ لأمسـك بقلمى ، فلم أجده، فأدركت أن الصبى الذى أمسكنى من صـدرى ، قاصـداً ضربى ، هو الذى سرقه ... فقد أمسكنى من الموضع الذى كنت أضع به القلم ، ولم أنتبه لشدة خوفى .

حزنت ــ أيامها ــ وكان حزنى يتجدد يومياً عند العودة من المدرسة ، وأنا أغسل يدىّ ؛ لإزالة آثار الحبر من أصابعى ، بعد عودتى لاستعمال الريشة ...

ألم أقل لكم أننا . فى طفولتنا . لم ننعم بمثل ما ينعم به أطفال هذه الأيام

ابتسامة العبور

أُف .. ! الجو شـديد الحرارة اليوم .. والرطوبة عالية .. العرق يتصـبب من جســدى دون بذل أى مجهود .. أصـبح التنفس ثقيلاً .. أقود ســيارتى بسرعة .. ما كدت أعبر شارع الأزهر متجهاً إلى شارع صلاح سالم ، و هو طريقى المعتاد إلى مسكنى بمصر الجديدة ؛ كــى أحتمى بــه من هذا الجو الخانق ، إلا وينفجر إطار العجلة الخلفية للسيارة ... هل هذا وقته ؟.

توقفت على الفور متبرماً .. ألوم ســيارتى القديمة على فعلتها هذه ، فلم تكتف بأعطالها الكثيرة التى تســبب لى الارتباك فى مواعيدى وأعمالى ، إلا وتريد أن تضيف إلى متاعبى متاعب أخرى ، بانفجار عجلتها الخلفية فى هذا الجو الخانق .

ألا تســتطيع ســيارتى أن تصــبر علىَّ قليلاً لحين أن يتوافر لدى المال ، وأجدد إطاراتها القديمة ؟ ... على كل حـال فإننى أحـمد الله كثيراً ، حيث لم يحدث أى اصطدام بينها وبين السيارات الأخرى المسرعة خلفى .

تبينت أننى أقف أمام المقابـر ... تشاءمت ... أخرجت الأدوات المعدة لرفع السيارة استعداداً لتركيب العجلة الاحتياطى .

بدأت العمل ، وبدأ العرق يتصبب من وجهى بغزارة ... أحسست به يغطى كل جسمى ... أخرجت المنديـــل ... بدأت أمسح العرق من وجهى ومن ذراعى .. صـــار المنديل كأنه مغســول فى التو واللحظة ... فوضـــعته ليجف على نافذة السيارة ...

وعاودت العمل ... ما كدت أعمل إلا وشـــعرت بخيال يتحرك ببطء خلفى ... التفت ناحية الخيال ... تبين أنه لفتاة فى التاســـعة من عمرها ترتدى فستانا برتقالياً ، وتضع فى قدميها " شبشب " ... يدل مظهرها على أنها رقيقة الحال .. كانت تعطينى ظهرها لتســـتعد لعبور الطريق إلى الناحية الأخرى.

أشــفقت عليها ؛ لأن الســيارات فى وقت الذروة لا تهدأ ولو للحظة ، فالكل يسير مسرعاً .

ذكرتنى هذه الفتاة بمشــكلة ســاكنى القبور بالقاهرة ... تمنيت و أنا أقوم بتغيير الإطار أن تُحل هذه المشكلة المشينة .

عبرت ـــ الآن ـــ الفتاة مسـرعة إلى الناحية الأخرى من الطريق .... فحمدت الله ، وعاودت العمل مفكراً فى أهل هذه الفتاة ـــ قساة القلوب ـ لسماحهم بخروجها فى هذا الجو الخانق.

عاودت مسـح العرق الذى أخذ يتصـبب غزيراً ... وأوشـكت أن أنتهى من عملى ... سمعت فرملة سـيارة شـديدة ... إلتفتُ إلى مصـدرها .. رأيت الفتاة الصغيرة ذات الفستان البرتقالى تقف على الرصيف الأوسط ...

كانت تحاول العبور للعودة إلى منزلها ... حمدت الله على سـلامتها ، بينما انطلقت السـيارة التى فرملت ، لتعاود سـيرها ، و تتحفز الفتاة مرة أخرى للعبور عندما تخف السيارات المسرعة قليلاً ... رأيت هذه المرة وجهها ... فتاة جميلة ... شعرها طويل ناعم ، تشع من عينيها براءة الأطفال ، لم يؤثر سكن القبور على طفولتها ... وجدتها هذه المرة تحمل كيساً من النايلون ، بداخله يظهر عدد من أرغفة الخبز الطازجة .. فهمت سبب خروجها فى هذا الوقت ... لعل أمها أرسلتها لتبتاع تلك الأرغفة الطازجة من المخبز القريب ؛ لتستمتع الأسرة بتناول خبز طازج مع وجبة الغذاء ... نوع من الاستمتاع بالحياة ...

الفتاة تعاود التحفز للعبور ... فتوقفت عن العمل ... أراقبها ... وددت أن أتجه إليها وأمسكها من يدها وأعبر بها الطريق ، ما كدت أنتهى من تفكيرى ... إلا وجدتها أسرعت بالعبور ... ما إن وصلت إلى الرصيف حتى علت وجهها ابتسامة كبيرة ، لم تكن الابتسامة لأحد ... كانت لنفسها هى ... لنجاحها فى العبور سالمة ... إنه انتصار كبير لها ... تعلمت منها أن لساكنى القبور ابتسامات أيضاً ... شيعتها بنظرى ، وهى تخترق الطرق الضيقة بين القبور ... إلى أن احتفت ....

عندما نظرت هذه المرة تجاه المقابر شاهدت أشجاراً جميلة خضراء مزروعة بجانبها ... كانت عينى لم تلحظها من قبل !!.

ذكريات بالشارع الضيق

لم يكن الأمر مصادفة ؛ بل حنينه للذكريات هو الذى دفعه للمشى فى هذا الشارع الضيق ، متذكراً قصة حبه القديمة ، بعد إصرار ابنه على الزواج من فتاة يحبها ، ولا يعلم الكثير عنهـا ، تماماً مثلما حـدث له فى مطلع شبابه .

كانت هى المرة الأولى والأخيرة التى مشـى بها فى هذا الشـارع الضـيق قرب نهاية الستينيات ، إلى أن عاد وسار فيه اليوم .

لم يتغير شـكل الشـارع كثيراً ، فهو لا يزال على ضـيقه ، والفيلات القديمة ـــ وقد ازدادت قدماً ـــ لا تزال قائمة على جانبيه ، بأسوارها التى تكسوها . بإهمال . النباتات المتسلقة ، ولا يزال الهدوء يسود جنبات الشارع ... الذى تغير فقط هو حال الأستاذ سمير نفسه ، فقد غزا الشيب رأسه ، و عركته تجارب الحياة .

اليوم ، حين مشى الأستاذ سمير ـ عدة خطوات قليلة ـ بأول الشارع ، تداعت الذكريات متدفقة ، تذكر سـلوى ، حبه العذرى القديم، تذكر حين رآها للمرة الأولى بمحطة الرمل بالإسـكندرية ، وهى تنتظر ترام " النصـر " ... فتاة تبلغ من العمر تسـعة عشـر ربيعاً ... عيناها زرقاوان ، ذات شـعر كستنائى ، ناعم وطويل ،

وقد نظمته على هيئة ذيل حصـــان ، كانت ترتدى فستاناً لونه أزرق فاتح ، بلون عينيها ، زادها جمالاً .

لا يعرف لماذا خفق قلبه بعد نظرته الأولى لها ؟ ولا لماذا اضـــطرب وتسمر بالأرض بجوارها مشدوهاً ؟

كان ينوى وقتها التنزه بالسير بشوارع سعد زغلول ، وصفية زغلول ، و وسط البلد ، ألغى كل ذلك ، ولا يدرى لماذا اتخذ قراره بتتبعها ، رغم وقتـه القصـير ، فاليوم كـان آخر الأيـام فى إجازته الميدانية ، حيث لم يسرح بعد من خدمة القوات المسلحة ، رغم انتهاء الفترة المقررة لتجنيد حملة المؤهلات العليا ؛ لظروف النكسة.

لم يعرف الحب طريقاً إلى قلبه من قبـل ، كان مجـداً فى دراسته بالكلية ، تحاشـى وقتها مكالمة زميلاته بها ، كان ينظر لتلك العلاقات العاطفية ، على أنها مضيعة للوقت .

بعد تخرجه ، جند بالجيش ، ثم وقعت نكسـة ١٩٦٧ ، فسـيطر العامل النفسى على مشاعره ، و رأى أنه لا وقت للحب .

كان يقضـى إجازاته الميدانية فى زيارات رتيبة للأهل والأصـدقاء ، واليوم حين رأى " سلوى " ، انقلب حاله ، ازداد قلبه خفقاناً ، أصبح كالشـخص المنوم مغناطيسياً ، فحين جاء الترام ، وصعدت إليه سلوى ، صعد وراءها ، وحين جلست على أحد المقاعد ، جلس قبالتها، وعندما نزلت بمحطتها نزل خلفها ، ســـارت متجهة إلى منزلها ، فتبعها من بُعد ، كان منجذباً إليها ... لكنه لم يحاول خلال ذلك معاكستها أو مضايقتها .

أخذ يسير جيئة و ذهاباً ، أمام المنزل الذى دخلته ، رآها تقف بشرفتها بالطابق الأول ، بعد أن غيرت ملابسها ، اطمـــأن عـــرف أنها تسكن هذا المنزل ، شعر بسعادة حين اعتقد أنها شاهدته ، بعدها عـاد فرحاً إلى منزلـه ، صـعد الســلالـــم قفزاً ... دخل على أسـرته والابتسـامة تغطى وجهه ... لاحظت أمه ذلك ، تمنت أن تكون أيامـه كلها فى فرح و سرور ، خاصة أنها تحمل همه ليلة السـفر ، لما يعتريه ليلتها من شـعور بالاكتئاب ، كانت تبكى أحياناً و هى تودعه عند سفره فى الفجر ، ولسـان حالها يتساءل : هل ستراه مرة أخرى ؟

كانت أمه تحاول أن تسـرى عنه أحياناً ؛ لتدخل البهجة فى نفسـه ، عند وجوده بالإجازات ، فتطلب منه أن يوافق على خطبته لإحدى بنات خالاته أو عماته ، فكان يتهرب من عرضها بقوله :

ـــــ ولماذا أربط بنات الناس بى ، و أنا لا أعرف متى ســأنتهى من تجنيدى بالجيش ؟

لم تفلح معه محاولات الأم ، وحتى لو بقراءة " فاتحة " فقط على إحداهن.

وحين عاد إلى معسـكره ، هذه المرة ، كان شـعوره غريباً ... كان يبتسـم للكـل ، عـانق كل من قابله من زملائه ، وزع عليهم كل ما حمله من حلوى صنعتها له أمه ، حتى الرقيب " صادق " ، الذى كان لا يحبه ؛ لقسوته عليه ، وعلى زملائه أثناء التدريبات ، أصبح يحبه ، أصبح قلبه يحب الجميع ، ولم يعد للكُرهِ مكان فيه .

كانت صورة سلوى تظهر فى مخيلته كثيراً وقت الراحة ، وهو بعيد عنها بمعسكره ، فى مكان ما بشاطئ البحر الأحمر ، كانت زرقة المياه الصافية تذكره بلون عينيها ، وإذا ما عاد إلى الإسكندرية فى إجازته ، كان يسرع متردداً على الشارع الذى تسكن فيه ، لعله يراها حين تقف بمفردها بشرفة منزلها ، أو حين تتسامر مع بعض أفراد أسرتها ، كان منتهى أمله أن تراه ، فإذا ما التقت عيناها بعينيه ، أسرع يمسح بيده على شعر رأسه عدة مرات ، كأنه يسلم عليها ، كانت تغمره السعادة حين تمس سلوى شعرها بيدها هى الأخرى ، فمعنى ذلك ـ كما يعتقد ـ أنها ترد عليه السلام.

لم يكن يهمه أن ينشئ علاقة غرامية معها ... فهو قد انتوى الزواج منها ، وعزم على التقدم لخطبتها ، يكفيه الآن ما عرفه من أحد أصدقائه ، زملاء الدراسة ، والذى يقطن بمنزل قريب من منزل سلوى ، عرف منه اسمها ، واسم والدها ، الموظف بالحكومة.

لقد كون مع طيفها الذى لا يفارقه علاقة عاطفية قوية ، أصبح يتحدث معه فى كل وقت وفى كل شئ ، كان الحوار مع طيفها محبباً إلى نفسه ، وكثيراً ما تخيلها تضحك معه ... تخيلها تارة وهما يسيران سوياً وأيديهما متشابكة ... ثم تارة أخرى يتخيلها وهما يستحمان فى البحر معاً يداعبان أطفالهما ، ثم يزداد خياله ، ويتخيلها زوجة له ، وقد تعاقبت عليهما سنوات العمر ، وهرما معاً ، لكن نار الحب بينهما ظلت متقدة .

و يتتابع تدفق الذكريات ، أثناء ســـيره فى الشارع الضيق ، تذكر حين كانت سـلوى تقف ذات يوم بالشـرفة ، أثناء وقوفه أمام محل بيع المرطبات المواجه لمسكنها ، ثم فوجـــئ بها تغـــير ملابسها ، و ترتدى فستاناً جميلاً ، وتنزل إلى الشارع ، تابعها يومـها من بعيـد ، كانت تتردد على بعض المحلات فى الشـوارع القريبـة من مسـكنها ، لتشترى بعض لوازمـها ، فكر أن يتشجع و يكلمها ... لكنه تردد ... تلعثم لسانه ، وانحبس صوته حـين كـان قريباً منها ، و أراد أن يقول لها " مسـاء الخير " ، اكتفى حين التقت عيناهما بإيماء برأسه ، تبعها بأن مسح بيده اليمنى على شعر رأسه محيياً ... لكنها لم تبادله الإيماءة بمثلها ... ولم تبادله سلام الشعر هذا ...

يومها لم يغضـــب أو يحزن ... فســـر هذا بأنها فتاة ذات أدب وأخلاق حميدة ... زاد حبه لها ، و زاد احترامه ، و عزمه على الزواج منها .

تذكر أيضـاً يوم عاد إلى منزله ذات مسـاء ، ووجد أمه فى انتظاره ، وقد أعدت له طعام العشاء على المنضدة ، وجلست بجواره تحدثه قائلة :

ــــ يا ابنى ، أنا خائفة من أن بنات العائلة يتزوجن جميعاً ، و لا يتبقى منهن واحـدة ... لقـد زارتنى خالتك ، وأخبرتنى أن ابنتها تقـدم لها " عريس " ... وأنها لم تـــرد عليه بعد ، بالموافقة أو الرفض ، وخالتك واضعة عينيها عليك أيضـــاً ... ولن تجد أنت مثل جمال أو أخلاق ابنتها ... إنها مناســبة لك يا سمير.

وتذكر رده عليها ، وقد فرح فى داخله ؛ لكى يتحدث معها عن سلوى ، ولكنه أجاب بخبث ، متسائلاً :

ــ و لمــاذا العجلة ؟ ... هــل من الصالح أن أخطب ، و أنا لا زلت مجنداً بالجيش ؟

ـــــ و ما المانع ؟ ... إن البنت الحلوة لن تنتظر كثيراً ... فســـوف يتقدم العشرات لخطبتها ، ثم إن الزواج وأنت صغير السن أفضل .

. إذن أنا موافق ... مادام هذا يُرضيكِ يا أمى.

فرحت أمه ، وأسرعت قائلة :

. سوف أتكلم مع خالتك فى الصباح ، وسأطلب يد ابنتها لك.

. أنا موافق على الخطوبة ... لكن من فتاة أخرى ، وليست ابنة خالتى .

صدمت الأم ، وصمتت برهة ، ثم قالت متلهفة :

. و من هى ؟ ... من هى ؟

وحكى لها سمير ــ على الفــور ــ عن سلوى مشيــداً بأخلاقها وجمالها ، وضع فيها كل الصفات الحميدة التى يعرفها فى الدنيا .

سألته أمه بأسى عن عائلتها ، عن والدها ، ومركز الاجتماعى ، إخوتها ... سلوكهم ... حالتهم المادية ...

أجابها سمير متبرماً :

ـ يا أمى أنا سأتزوجها هى ، أم سأتزوج عائلتها ؟

هدأته أمه ، قائلة له ؛ لترضيه :

ـ شوقتنى لها يا سمير ... سأخبر أباك بشأنها ، وسأجعله يوافق ... حدد لنا موعد زيارتنا لهم ؛ لطلب يدها .

تذكر سمير ، و هو لا يزال يمشى فى الشارع الضيق ، كيف أنه لم ينم ليلتها من الفرح ، و كيف أنه ظل ممدداً على سريره ، محملقاً فى السقف ، وابتسامة الرضا تعلو شفتيه ... فهو قد اقترب من تحقيق أغلى أمانيه ...

لكنه فى الوقت نفسه كان يود أن يعرف رأى سلوى فيه ، قبل أن يتقدم هو ووالداه ؛ لطلب يدها ، عزم على أن يحادثها فى إجازته القادمة ... سوف يتشجع و يكلمها ؛ ليعرف رأيها ، ويستأذنها فى التقدم إليها .

تخيل ، وهو لا يزال راقداً على السرير ، أنها خرجت ، و أنه تبعها ، وأنه سوف يكلمها ... لن يهمه أى شئ ... إنها ستصبح زوجته ، إنه يعتقد أنها تبادله الحب ، ولكنه حياء العذارى ، هو الذى يمنعها من إظهار شعورها ... لذلك فإنها لا تبادله أية إيماءة برأسها ، رداً على تحياته لها ، ولعل هذا سر تعلقه بها ، و رغبته أن تكون هى شريكة حياته ... تخيل حديثه معها عندما يقابلها فى الشارع ... سيقول لها :

ـ " صباح الخير يا سلوى " .

لا ... لا يصح أن أخاطبها أول مرة باسمها مجرداً ... يجب أن أقول :

ـ صباح الخير يا آنسة سلوى ... أعرفك بنفسى ... أنا سمير ... بكالوريوس تجارة ، ومجند حالياً ... و معين بالشركة "الفلانية" .. سوف أسرح من الجيش قريباً بإذن الله ... أنا معجب بكِ و بأخلاقك ... و أرجو أن أتقدم لك ... فهل تسمحين لى بأن أحضر أنا و والدى لكم بالمنزل ، إذا لم يكن هناك مانع ... و للعلم أنا من أسرة طيبة ، و ميسورة الحال ... و كل ما ستطلبونه سيجاب .

ظل طوال ليلته هذه ... يعدل فى الكلمات والجمل التى سوف يقولها ، و ينتقى منها الأحسن ، ثم أخذ فى معاودة ترديدها ؛ ليحفظها ، إلى أن نام قليلاً قبل سفره لوحدته العسكرية.

مرت الأيام متثاقلة ، وجاء موعد إجازته الميدانية التالية ، بشرته أمه بموافقة والده من حيث المبدأ ... أسرع بالخروج ...

كان الجو معتدلاً ... منتصف سبتمبر ... كان لأغانى الحب التى يسمعها طعم ومذاق آخر اليوم ... أحس بأنه لا يمشى ، بل يطير ... أخذ يصفر بفمه مع بعض تلك الأغانى العاطفية ، التى تنبعث أصواتها من الإذاعة بالمحلات ...

وصـــل إلى ناصـــية الشارع المواجه لمنزل سلوى ... عيناه على الشرفة ... ابتاع زجاجة مياه غـازيـة ، أخـذ يشربـها بتمهـل ... ها هى سلوى تتردد واقفة بالشرفة ...

ما أجملها فى نظره اليوم ، و ما أروع الفستان الذى ترتديه ، كأنها تعرف أنه سيطلب يدها اليوم ، فاستعدت لذلك ... هكذا فكر سمير .

يسرع بتحيتها كمــا يفعل دائمــاً بإيماءة برأسه مع مسح شعر رأسه بيده اليمنى ...

تساءل فى سره ، قائلاً :

ـ هل يا ترى ... تحس سلوى بما أريد أن أقوله لها اليوم ؟

تمنى أن يوفقه الله ...

لحظـــات و تخرج سلوى إلى الشارع ، تسرع فى خطاها ، يسير وراءها بمسافة مناسبة ، لا توحـــى لأحـــد بأنه يتتبعها . أخذت سلوى تبتعد عن الشـوارع المزدحمة ، و تتجه إلى الشوارع الجانبية والهادئة بالحى ، ثم اتجهت إلى شـارع ضيق ، وانحرفت منه إلى شـارع أكثـر ضيقـاً ، وأكثـر هـدوءً ... وسمير لا يزال يتبعها ، أخذ يقترب منها ، اســترجع كل الكلمات التى أعدها ســابقاً ، وحفظها عن ظهر قلب ، أحس بأن أقداماًً أخرى ، تسير خلفه ، فأبطأ سمير فى السـير ، وقصـر فى خطواته ، كى يسـبقه هذا الشـخص ، فلا يصـــح أن يكلمها هكذا أول مرة ، ويحرجها أمام أى إنســـان ... ويكفى سلوى أنها ساعدته بأن توجهت إلى هذا الشارع الهادئ.

لا تزال سلوى تسير ، أبطأت فى السير ، توقفت ، استدارت للخلف ، يا لجمالــها ... ابتسمــت و هى تنظــر للأرض ... فابتسم سمير ، وانشرح فؤاده ، كاد يطير فرحاً ، فهى إذن كانت تشعر بحبه طوال هذه المدة .

ما هذا ؟ ... إنه لا يصــدق ... لقد اقترب الشــخص الذى كان يســير خلفه منها ... و مد لها يده ... تشابكت أيديهما ... سارا سوياً ....

توقف سمير عن الســير ... أحــس بقلبــه يحترق ... يريــد أن يصرخ ... يبكى ...

داخ ... لم يعرف ماذا يفعل ... اسـتدار للخلف ... يومها سـار فى كل الشوارع بلا هدف ، حزيناً بائساً .

تذكر تماماً ، عودته للمنزل فى ذلك اليوم ، حيث كانت أمه لا تزال فى انتظاره ، لتجلس بجواره ، و هو يتناول عشـــاءه ، كان كل من فى البيت نام إلا هى ... وجدها فرحة ، وسألته متلهفة :

. هل حددت ميعاد زيارتنا لعروستك ؟

افتعل سمير ابتسامة ، و هو يقول مازحاً لأمه :

. طول عمرك يا أمى طيبة ، هل صدقتِ حقيقة أننى أنوى الزواج ، إننى كنت أمزح معك ، وأسايرك فى الكلام ، لن أتزوج إلا بعد أن أنتهى من تجنيدى .

تضحك الأم بصوت عال قائلة :

. و الله يا سمير أنا صدقت كلامك ...

اتجه بعدها إلى غرفة نومه ، لم يتناول العشــــاء بحجة أنه أكل "ســـاندويتشـــات" بالخارج .. و يومها نام دافناً وجهه بالمخدة ... ولو كان أحد بجواره ، لسمع أنيناً مكتوماً صادراً منه .

و حين انتهى الأستاذ سمير المحاسب الكبير من استرجاع ذكرياته ، كان قد وصل إلى نهاية الشارع الضيق .

المثقف و محطة القطار

دكتور عبد السلام ، أستاذ جامعى ، بإحدى الكليات النظرية بالإسكندرية ، ويقوم بإلقاء محاضرات بصفة منتظمة ، فى موعد ثابت ، هو يوم السبت من كل أسبوع ، بإحدى الكليات المماثلة بالقاهرة .

يحرص الدكتور عبد السلام على محاضراته بالقاهرة ، حرصه هذا ليس مرجعه رغبته فى الحصول على مكسب مادى ، بل لعلمه بأهمية وجوده بالعاصمة ، بالنسبة لطموحاته الشخصية ... تلك الطموحات التى جعلته يشارك فى كل الأنشطة الاجتماعية بجامعته ، ومشاركته الإيجابية بنادى هيئة التدريس ، وإعلان آرائه و مواقفه فى بعض مشكلات الوطن ، وهى آراء - معظمها - تؤيد فكر الحزب الحاكم .

وسيلة سفره للقاهرة تتم بالقطار ، فهو يستقل قطار الثامنة وعشر دقائق صباحاً من محطة سيدى جابر ، المباشر للقاهرة ، حيث السفر به أكثر راحة ، وأكثر أماناً ، ويوصله فى وقت يتناسب مع موعد بدء إلقاء محاضراته ، بعدها يعود للإسكندرية فى أحد القطارات المباشرة أيضاً .

صباح كل سبت توصله زوجته ، الأستاذة الجامعية أيضاً ، بسيارتها إلى محطة سيدى جابر ، أثناء قيامها بتوصيل ابنتهما للمدرسة ؛ لذا فإن الدكتور عبد السلام يصل إلى المحطة فى موعد مبكر عن موعد وصول قطاره .

لا يحب الدكتور عبد السلام قضاء وقت انتظاره للقطار جلوساً باستراحة المسافرين بالدرجة الأولى ، حيث تكون شبه خالية وقتئذ . كما لا يحب الجلوس بمقهى المحطة ؛ لعدم رغبته فى تناول شئ من المشروبات ، بعد تناوله قهوة الصباح مع زوجته ، عقب الإفطار بالمنزل ، لذا فهو يفضل انتظار قطاره جلوساً على المقاعد المعدة لذلك بالمحطة بالرصيف الأوسط ، حيث يمكن لقاء أكبر عدد من معارفه المسافرين والتحدث إليهم .

كثيراً ما كان يتسلى ـ لحين وصوله قطاره ـ بالاستماع إلى أحاديث بعض الجالسين بالمقاعد المجاورة له ، فيعرف منها اهتمامات الناس .... والتى انحصرت وقتها فى أخبار الفريق القومى لكرة القدم ، ونتائجه التى حرمته من الوصول إلى مباريات كأس العالم ... و أحياناً أخرى ، عن الغلاء والعلاوة الاجتماعية ، وضمها للمرتب ؛ للاستفادة منها فى المعاش .

فى مقعده بالمحطة ، أثناء فترة انتظاره هذه ، يبدأ ـ عادة ـ بتصفح جريدة الصباح ... الصفحة الأولى ... و بعدها مباشرة الصفحة الأخيرة من الجريدة ... ثم ينتقل إلى الصفحة قبل الأخيرة ، والمنشور بها أخبار الوفيات ، حيث يقرأها بتركيز و عناية ، فهذه الصفحة تتيح له فرصة مجاملة العديد من الأصدقاء والمعارف ، فهو رجل اجتماعى يحب المجاملة .. ثم يكتفى بهذا القدر من القراءة ، تاركاً بقية الصفحات لقراءتها بالقطار .

كثيراً ما كانت تتداعى الذكريات ، و هو جالس بالمحطة ... فتارة يتذكر هذه المحطة ، حين رآها لأول مرة فى بداية الخمسينات ، عندما كان يقيم مع أسرته بالقاهرة ، فقد كافأه والده ، عندما نجح فـــى الشهـــادة الابتدائية ، بقضاء عدة أيام بالإسكندرية ... يتذكر جيداً وقت وصولهم للمحطة ليلاً ، كانت المحطة تُضـاء بمصـابيح النيون الخضـراء ، لهذا شـاهد وجوه و ملابس المسـافرين كلها خضـراء ، وكان هذا المنظر أول مرة يشـاهد فيها الناس بهذا اللون ، فعلقت تلك الصورة بذاكرته حتى اليوم.

و تتداعى الذكريات أيضـــاً بالنســـبة لموقع المحطة قديماً ، حيث الخلاء الواسـع كان يحدها من الناحية القبلية ، فكان المســافر أثناء وقوفه بالمحطة ، يشعر وقتها براحـة ؛ لوجـود هـذا الفضاء الممتد أمامه ... ويتحسر الدكتور عبد السـلام لما آلت إليه المحطة الآن ... فقد خنقوها بالأبراج الأسمنتية التى زحفت إليها ، واحتلت الأرض الخلاء .

و محطة سكة حديد سيدى جابر ـ إن لم تكن تعرفها ـ تتكون من أربعة أرصـفة .... الأول عند مدخل المحطة من الناحية البحرية ، و الثانى والثالث ملتصـــقان بمنتصـــف المحطة ، ثم الرصـــيف الرابع فى نهايتها ، وبين كل من الرصـــيف الأول و الثانى يوجد أربعة قضـــبان حديدية لســـير القطارات فى اتجاهين متضادين ، و نفس الشئ بين الرصيفين الثالث و الرابع .

و القطارات القادمة للمحطة تظهر فجأة ، و من مســـافة قريبة لوجود منحنيين قريبين منها ، من جهتى قدوم القطارات ، يحـــولان من رؤيتهم من مسافة بعيدة ، فينزعج بعض المسافرين عند رؤيتهم للقطار فجـأة أثناء عبور أحد ، وسيره على القضبان بين الأرصفة ؛ خشية وقوع حـادث له ... ولهذا السبب ، فالدكتور يرى أن اختيار المحطة فى هذا الموقع لم يكن اختياراً صائباً ... كثيراً ما كان الدكتور عبد السلام ، يتأمل المسافرين متعجباً ــــ و هو فى جلسته هذه بالمحطة ـ لهذا الوضع المثير للأعصاب ، من وصول عدة قطارات فى وقت واحد تقريباً إلـــــى المحطة ، ونزول عدد من النســـوة الفلاحات ، بأحمالهن الكبيرة ، من القطار القادم من الريف ، و الذى يقف على رصـيف رقــم أربعة فى نهاية المحطــة ... ثم محاولتهن اللحاق بقطـار أبى قـير ، الخاص بضـــواحى مدينة الإســـكندرية ، و خلال ذلك يتعرضـــن للمخاطر ؛ لعدم نزولهن من الأبواب المخصصة للنزول ، و لعـدم عبورهن من الأماكـن المعدة لذلك ... فهن يفضلن ــ كسباً للوقت ــ النزول مباشرة إلى الأرض ، حيث توجد القضبان بين الأرصفة .

ويساعد على ذلك وجود أبواب قطارات الدرجة الثالثة ـ دائماً ـ مفتوحة من الجهتين ، بعدها يسرعن بأحمالهن إلى رصـيف رقم ثلاثة ، فيصـعدن إليه ، ثم يجرجرن أحمالهن حتى حافة الرصـــيف رقم اثنين ، ويســـرعن بالنزول منه مرة أخرى ، حيث يمشـــين على القضـــبان ، ويلقين بأحمالهن داخل عربات قطار أبى قير ، الواقف على رصيف رقم واحد ،

والـذى لا يتوقف بالمحطـة إلا دقـائق قليلـة ، ثم فى حركـات بهلوانيـة يتعلقن بالقطار ، و يصـــعدن إلى داخله عن طريق الأبواب المفتوحة من تلك الجهة أيضاً ، وبمساعدة مد أيدى بعض الركاب إليهن أحياناً ...

خلال عملية الصـــعود إلى الأرصـــفة والهبوط منها ، ثم الســـير على القضــبان ، كثيراً ما كانت تعلو صــرخات التحذير، يطلقها بعض الموجودين على أرصفة المحطة لتلك النسوة ، ينبهونهن بقدوم أحـــد القطارات المسرعة ... و ما أكثرهـــا فى هذا التوقيت صباحـــاً ؛ لكن النسوة البائعات ، كن يقابلن مثل هذه التحذيرات باستخفاف وعدم اكتراث.

و هذه اللحظات ، التى كانت تثير الأعصـاب ، كانت من ناحية أخرى ، تشـحذ فكر الدكتور عبد السـلام ، خاصـة أنه بطبعه يميل إلى تلك الطبقة الكادحة، ويتعاطف معها ، فكان يشـــاهد ما يحدث أمامه كأنه يطالع لوحة للكفاح اليومى لإنســان العصـر المطحون ، ويقرر بأنه يجب على المثقفين من أمثاله ، أن يقدموا يد المســـاعدة بأفكارهم ؛ لإبعاد خطر ســـقوط إحداهن تحت عجلات القطار أثناء عبورها شريط السكة الحديد .

تأتيه فكرة ـ أول الأمر ـ بضرورة إحاطة مسئولى السكة الحديد عن طريق الكتابة ببريد القراء بجريدته الصــباحية ، موضــحاً هذا الخطر ، طالباً تعديل مواعيد وصــول القطارات ، بما يضــمن ســلامة تلك البائعات ، أو اتخاذ ما يرونه مناسباً ؛ لإلزام تلك النسوة بالعبور عن طريق النفق المخصص لذلك .

و تمر الأيام .... ثم تمر الأسابيع ...

و مع مشـــاغل الدكتور عبد الســـلام الكثيرة ، لا ينفذ ما فكر فيه من الكتابة للجريدة .

و ذات صـــباح ، فى موعد ســـفره ، و هو بجلســـته المعتادة بالمحطة ، منهمكاً فى قراءة صـفحة الوفيات بجريدته ، إذا به يسـمع صـرخة تحذير من أحد الواقفين بجواره ؛ منبهاً إحدى النسوة من قدوم قطار .

. حاسبي ... اطلعي بسرعة ...

كان لهذه الكلمات صـــداها لدى الدكتور عبد الســـلام ... فقد أخذ يحاور نفسه ، معاتباً تارة ... و مدافعاً تارة أخرى ...

ـــــ ما الذى منعك يا دكتور من الكتابة لبريد القراء ؟ .. يالك من مثقف كسول ....!!.

ــــ إن ما يُسمح للنشر فى " بريد القراء " ... هو عدة سطور قليلة فقط ، وهذه المشـــكلة ذات أبعاد عديدة ... بعد اجتماعى ... وبعد اقتصـــادى ... و بعد تنظيمى ... ويجب تناول كل هذه الأبعاد بالدراسة ، فلا يقتصر الأمر على البعد الظاهرى فقط بتعديل مواعيد وصـــول القطارات، و لهذا فإنه يجب تناوله فى مقال طويل سوف أرسله للجريدة.

. قد يكون معك الحق ... المهم الإسراع بعرض المشكلة و حلولها.

و تمر الأيام ... ثم تمر الأسابيع ...

و لم يبدأ الدكتور فى كتابة مقاله بعد ...

لكن ــ والحق يُقال ــ كان صباح كل سبت ، يتأمل نلك اللوحة الحية ، كان يتأملهن ، و كانت الابتسامات التى تعلو وجوههن . رغم أحمالهن الثقيل و مشقة السفر ـــ كانت تلك الابتسامات تثير تعجب الدكتور ... فيتذكر مقولة أحد رجال الثورة الفرنسية :

" ليس الظُلمُ وحدُه مُولِّدَ الثوراتِ ... ولكنه الشعور بالظلم ".

أثاره ــ حقاً ــ حالة فتاة نحيلة الجسم ، تحمل فوق رأسها جوالاً كبيراً من الخيش ، ممتلئاً بالجرجير و البقدونس ، تذكـــر وقتها محاولات نملة صغيرة ، شاهدها ذات يوم ، تحاول جر قطعة من الحلوى ، ضعف حجمها ، و تنجح فى محاولتها فى النهاية ... يبتسم الدكتور ، وهو يشاهد هذه الفتاة النحيلة ، ابتسامة تشجيع و تقدير ...

استمر الدكتور فى جلسات التأمل كثيراً ، و كان فى كل مرة ، يكتشف جديداً ....

لاحظ أن معظمهن لم ينسين زينتهن بتكحيل عيونهن ...

فى تأملاته هذه ، شاهد امــرأة قصيرة ، ممتلئة الجسم ، كانت تسير على القضــبان ، فى مواجهته ، حيث ألقت بحمولتها على الرصــيف ، ثم فاجأت الدكتور بطلبها منه أن يمد لها يده ؛ ليعاونها على الصعود إلى الرصيف . كاد وسطه أن ينخلع أثناء صعودها ،

لم يكن هناك مفر ، فلم يكن أحد سواه فى مواجهتها ... فضل بعـــدها أن يخبئ وجهه فى الجريدة إذا ما شاهد هذه المرأة الممتلئة قادمة ؛ حتى لا تكرر طلبها منه ثانية .

- " حاسبي ... اطلعى بسرعة " . صرخ أحدهم ...

يجرى نحوها آخر ، ماداً يده لها ، يشدها لتصعد على الرصيف بسرعة. -

" الحمد لله ... كانت ستضيع لو تأخرت ثانية واحدة " ، قالها ثالث .

يعود الدكتور إلى حالته السابقة فى محاورة نفسه ... مؤنباً ومدافعاً....

- لا عذر لك يادكتور هذه المرة .. لماذا كل هذا التأخير فى كتابة المقال ؟

ــ أنا لم أنقطع عن التفكير فى هذا الموضوع ... ويومـــاً بعد يوم تتكشف لى أبعاد أخرى كثيرة . إن المشـــكلة ليســـت كامنة فى محطة ســـيدى جابر وحدها ... فقد يكون هذا الوضـــع فى محطات كثيرة أخرى ، والمشـــكلة تبدأ من داخل القرية ... لماذا لا تقوم الدولة ـــــ مادامت الآن تشـــجع الصناعات الصغيرة - بإقامة شركات أو جمعيات تعاونية ؛ لشراء ما تنتجه القرية ، ثم إعادة بيعه مرة أخرى بالمدينة ، عن طريق مندوبين بســـيارات مجهزة لحفظ تلك المنتجات ، تجوب القرى فى مواعيد محددة معروفة لأهل القرية ، وبهذا يمكن أن نحمى تلك النســـوة من التعرض لمخاطر ومشـــقة السفر ، وهذا الأمر يحتاج إلى دراسة ميدانية متأنية . وسوف أقوم بعمل مجموعة بحث من الطلبة الدارسين بكليتى بالإسكندرية ؛ لتنفيذ ذلك .

يقطع صوت مذيع المحطة حبل أفكاره ، معلناً عن وصول قطاره ، وهو القطار الوحيد الذى يعلن عنه فى الصباح ، رغم وصول العديد من القطارات ... يقول المذيع :

" يصل إلينا حالاً على رصيف سكة ثلاثة القطار التوربينى الفاخر رقم ٩٠٤ ، درجة أولى و ثانية فقط ، بنظام الحجز ، مباشر للقاهرة ، لا يتوقف بالمحطات ... عربات الدرجة الأولى خمسة وستة وسبعة ، بمنتصف القطار ...". فينهض الدكتور متجهاً لعربته .

و تمر الأيام ... ثم تمر الأسابيع ...

و كما اعتاد الدكتور أن يجلس بمقعده كل سبت بالمحطة ، متأملاً تلك اللوحات الحية ، لحين وصول قطاره الفاخر للقاهرة ، مضيفاً إلى أفكاره السابقة أفكاراً جديدة ...

و بينما هو مستغرق فى فكره هذا ، إذا به يسمع صراخاً عالياً من أحد الواقفين بجواره ، منبهاً إحدى النسوة ، أثناء عبورها على القضبان بقدوم قطار ... هذه المرة أكثر من رجل يصرخ أيضاً ، ينبهون المرأة ، من قطار ظهر كالوحش فجأة ... فالمنحنى لا يبعد عن المحطة إلا حوالى مائة وخمسين متراً فقط ، فلا يظهر القطار إلا من تلك المسافة ...

ينظر الدكتور ناحية المرأة ، إنه يعرفها ، إنها المرأة الممتلئة ، التى سبق أن مد يده لها ؛ لمعاونتها لصعود الرصيف ، فكاد وسطه أن ينخلع ... ازداد الصراخ ، والقطار قادم كالوحش ، ترددت المرأة فى أى اتجاه تهرب ، تعثرت قدمها بأحد القضبان ... تقع ... والقطار كالوحش ...
" لا حول و لا قوة إلا بالله " ... يخفى بعض الواقفين وجوههم بأيديهم .. تبكى بعض النساء ... إنه القطار القادم من أبى قير .

يقف القطار بعد أن تخطى جثة المرأة ... كلمات من هنا و من هناك تترحم على المرأة ... يناول الدكتور عبد السلام جريدته لأحد الواقفين بجوار الجثة ؛ ليخبئ جسدها بورق الجريدة ... لن يخبئ الدكتور وجهه بجريدته بعد الآن .

مذيع المحطة يعلن بقدوم القطار " التوربينى " الفاخر المتجه للقاهرة ، يتجه الدكتور حزيناً إلى العربة التى به مقعده ، يجلس عليه ، يؤنبه ضميره .. يخرج من حقيبته ورقاً و قلماً .. يحرر برقية لوزير المواصلات ؛ موضحاً المشكلة بإيجاز ... يعيد قراءة ما كتبه .. يجد أن البرقية تفى بالغرض ... يعتزم إرسالها فور وصوله إلى القاهرة من مكتب تلغراف المحطة ... ينفذ ذلك ... يستريح نفسياً ؛ لتحركه الإيجابى هذه المرة ، و إن كان قد تم بعد فوات القطار.

موافقة! ..

الأســـتاذ عبد الكافى مدرس بالمعاش ، كان يعمل بتدريس اللغة العربية، وتنقل بين العديد من المدارس الحكومية إلى أن اســـتقر به المقام بمدينة الإسكندرية ، حتى أُحيل للمعاش منذ عشر سنوات.

منذ عشـرين عاماً تقريباً ، با ع نصـيبه من الأرض الزراعية ، و أودع كل ثمنها ببنك العاصمة " فرع أوزوريس " ، رحب به مسئولو البنك وقتها، و تم فتح حســـاب جار باسمه بالبنك ... حَوَّل عليه مرتبه ... وســـلمه البنك العديد من دفاتر الشيكات على التوالـــى ... مرقمة و مطبوع عليها اسم العميل و رقم حســـابه ... و عندما أُحيلَ للمعاش طلب تحويل معاشـــه إلى حسابه بالبنك أيضاً.

رفض الأســـتاذ عبد الكافى بعد خروجه للمعاش أن يشـــتغل بالمدارس الخاصة ، فهو ـ والحمد لله ـ قد زوج بناته الثلاث ، لقد أتت عملية تزويجهن على كل الرصـــيد الموجود لديه بالبنك ، لكنها مســـتورة ، فمعاش ودخل زوجته يكفيانهما ، وليس لديه مشـكلة لشـغل وقت فراغه ، فهو قد انضـم لجمعية " أرباب المعاشـــات المتحدة " ، والقريب موقعها من منزله ، و بذل فيه جهداً مميزاً ، فتم انتخابه أخيراً أميناً عاماً عليها ، وأصبح يقضى نهاره بها ، يقدم خدماته للأعضاء.

يوم الاثنين الموافق الثالث من أبريل ، توجه إلى البنك الموجود به حسابه الجارى ؛ لتسلُم دفتر الشيكات الخاص به ، والذى سبق أن قدم طلباً بذلك منذ عدة أيام ، لكن الموظف المختص اعتذر بلباقة عن تسليمه الدفتر ، وطلب منه الحضور للبنك عند موعد صرف المعاش ، ثم التوقيع على نموذج مطبوع لديهم لتسلُم المعاش .. عندما استفسر منه الأستاذ عبد الكافى عن سبب ذلك، أفهمه الموظف بأن هذا ليس موقفاً خاصاً به وحده بل إن هذا قرار الإدارة الجديدة بالبنك بالنسبة لأصحاب المعاشات، الذين لديهم حسابات بالبنك ، و لا يوجد لديهم رصيد مالى كبير به .

عاد الأستاذ عبد الكافى إلى منزله مهموماً ... فهو قد تعود على التعامل بالشيكات منذ ما يقرب من العشرين عاماً ... وهو الآن أحوج للتعامل بها ؛ لظروفه الصحية ... فهو يكره الازدحام بالبنوك أيام صرف المعاشات ، فكان يتسلم معاشه عن طريق تحريره شيك لإحدى بناته التى تعمل بجوار البنك ، فتقوم بصرفه وتسليمه لوالدها ، وعليه الآن أن يمتثل لتعليمات الإدارة الجديدة للبنك ، بأن يتوجه بنفسه ـ فى هذه السن ـ لتسلُم معاشه كل شهر.

لم يشأ أن يعرج على جمعية " أرباب المعاشات المتحدة " ، وهو فى طريقه إلى البيت ، فالأعضاء لا يعرفون عنه غير صورته البشوشة ، و هو يخدم الجميع ، و نضاله فى الحق ، أما الآن فهو فى حالة من الاكتئاب والحزن ، فليجلس بالبيت فى هدوء يفكر فى الأمر ،

فهى ليست مشكلة تخصه وحده ، بل هى مشكلة ستصادف كل أصحاب المعاشات مثله ، الذين يتعاملون مع بنك العاصمة ... و من يدرى فقد تحذو حذوه البنوك الأخرى أيضاً !.

بإيجاز أخبر زوجته بما حدث ... هونت عليه ... أعدت له فنجاناً من القهوة ... جلس على الكرسى الهزاز بشرفة المنزل التى انحسرت عنها الشمس ... لعل منظر البحر الذى يراه بوضوح من موقعه يخفف من حدة توتره ... يفكر جلياً فى الأمر ... لا يهمه دفتر الشيكات ، بقدر ما يهمه الموقف اللاأخلاقي ذاته ، لقد رحب به البنك كثيراً ، عندما أودع به رصيداً مالياً كبيراً ، فلما نفذ المال ، و لم يتبق إلا معاشه الشهرى ، فقد أحس البنك بأنه و أمثاله من أصحاب المعاشات أصبحوا عبئاً على البنك ، فبدأ ببعض الإجراءات لمضايقتهم ... لعلهم يتحولون عنه إلى جهة أخرى.

إنها قضية تمثل انحداراً أخلاقياً تجاه المسنين الذين أعطوا الوطن بلا حدود ... إنها إهانة تجاه هؤلاء الرجال من ذوى الشعر الأبيض ، وهم فى خريف العمر ... يجب عليه عرض الأمر على أعضاء جمعيته ؛ ليتخذوا فيه موقفاً موحداً ضد هذا البنك ... ولابد أن يرفع الأمر إلى كبار المسئولين ... فالأيام علمته أن أعتى المشكلات المستعصية على الحل ، تُحل بسرعة البرق إذا ما صدرت توجيهات من الجهات العليا ... خاصة إذا صاحبَ المشكلة دوى إعلامى كبير ...

ينتهى من شرب القهوة ... يضع الفنجان على المنضدة الصغيرة المجاورة له ... يعاود هز الكرسى ... يستمر فى الهز و هو يفكر ... ويوالى الهز ...

* * * * *

بقاعة اجتماعات الجمعية المتسعة ، يجلس على المنصة الأستاذ عبدالكافى الأمين العام للجمعية إلى يمين الدكتور الشربتلى رئيس مجلس إدارتها ، و وضعت أمامهما منضدة كبيرة ، غُطيت بمفرش أبيض ، وعليها ميكروفون الاجتماعات.

فى مواجهتها جلس أعضاء الجمعية من أرباب المعاشات ... كان عددهم كبيراً ، خاصة بعدما علموا بأن أجهزة الإعلام والتليفزيون سوف تحضر هذا الاجتماع ... وفعلاً فقد اكتظت القاعة بعدد كبير من المصورين و رجال الإعلام.

يفتتح رئيس الجمعية الاجتماع مُرحِّباً بالحاضرين ... شاكراً لأجهزة الإعلام المرئية و المسموعة و المقروءة ؛ لحضورهم الكريم ... و يخص بالشكر شبكة " أ.ب.ت " العالمية ... و يأسف لعدم حضور ممثل التليفزيون الوطنى حتى الآن ... يرجو من الأعضاء أن يكونوا على مستوى المسئولية ... فإن هذا الاجتماع ستتناقله وكالات الأنباء عبر الأقمار الاصطناعية ... ثم يعطى رئيس الاجتماع الكلمة للأستاذ عبد الكافى الذى يقف خطيباً ، و مستعيداً أمجاده حينما كان يرتجل الخطب الحماسية أمام التلاميذ فى المناسبات الوطنية .

بدأ الخطبة بشـــرح ما حدث له بالبنك ... و بأن قرار البنك لا يعنيه وحده ... بل سيطبق على كل أرباب المعاشات المماثلين لحالته ... أوضح لهم بأن هذا القرار لا يتفق مع المنطق ولا الإنسانية بالنسبة لسنهم ولظروفهم الصحية ... ويلزم عدم حرمانهم من حقهم فى تَسَلُّم دفاتر الشيكات كما كان فى الماضى ... و أنهى خطبته بصوت حماسى أكثر عندما ذكر مقولة شكسبير " نكون أو لا نكون ..." ، صفق الحاضرون كثيراً له ، و دلَّ هذا على تعاطفهم معه ، وقد استمروا مدة أطول فى التصفيق عندما صُّوِبَت نحوهم آلات التصوير.

يعود رئيس الاجتماع إلى محادثة الحاضرين قائلاً :

ـ و الآن نستمع إلى اقتراحات السادة الأعضاء ... و أرجو من الأستاذ عبد الكافى الأمين العام تسجيلها ، و تسجيل الموافقات من عدمها ، وشكراً .

و هنا يقف أحد الجالسين بالصف الأول ... يهندم ملابسه ... يشد رباط عنقه .. يبدو عليه أنه كان مستعداً لإبداء الاقتراحات .. فقد أخرج ورقة من جيبه ؛ استعداداً لقراءتها ... انتظر إلى أن انتهى رجال الإعلام بأخذ مواقعهم قريباً منه ، و وضع أجهزة التسجيل التى يحملونها أمام فمه ... قرأ المكتوب من الورقة بصوت مرتفع ، قائلاً :

ـــــ إزاء ما حدث من بنك العاصـــمة ... فإننى أقترح على الزملاء أعضـــاء الجمعية ... الاعتصام بالمبنى ، والإضراب عن الطعـام إلى حين إلغــاء القرار الصـــادر من البنك بعدم تســـليم دفاتر شـــيكات لأرباب المعاشـــات ...

يقف أحد الأعضاء البدناء رافعاً يده للإذن بالحديث ، قائلاً :

ـ أرجو إضافة عبارة " عدا المرضى منهم " .

يسأل الأستاذ عبد الكافى الحاضرين :

ـ ما رأيكم ؟

يجاوبه الحضور بالتصفيق الحاد من الجميع .

يبتسم الأستاذ عبد الكافى و هو يقول :

ـ موافقة.

و يسجل الاقتراح بدفتر أمامه ، و يدون كذلك اسم مقترحه .

و توالى الاقتراحات من الأعضاء .

اقتراح بعدم التعامل مع بنك العاصـــمة ... و على أرباب المعاشـــات سـحب ودائعهم منه ... و على النقابات المهنية بدورها التضـامن مع أرباب المعاشــات ، و على أعضـــاء الجمعية الاتصـــال بالنقابات المختلفة ... و فى حالة التقاعس ... على أرباب المعاشات عدم إعطاء أصواتهم فى الانتخابات القادمة للمتقاعسين.

يوجه الأستاذ عبد الكافى حديثه للحضور :

. ما رأيكم ؟

يجاوبه الحضور بالتصفيق الحاد من الجميع .

يضحك الأستاذ عبد الكافى و يقول :

. موافقة .

ثم يسجل الاقتراح .

و يقترح ثالث عدم تعامل جمعية " أرباب المعاشـــات المتحدة " مع التليفزيون الوطنى ـ مستقبلاً ـ لعدم حضوره تسجيل هذا الاجتماع، الذى تبحث فيه مشاكل مهمة لأرباب المعاشات ... فهو يهتم فقط عند حضوره بالجانب الترفيهى ... كنوع من الشفقة نحونا .

. هل أنتم موافقون ؟

تصفيق حاد، وينشرح صدر الأستاذ عبدالكافى، ويعلن بصوته المرتفع :

. موافقة .

ثم يتخذ إجراءات التسجيل .

و من آخر القاعة ... يقدم أحدهم اقتراحاً رابعاً ... لكن صوته لم يصل جيداً لأسماع الناس ... يدعوه الأستاذ عبد الكافى للحضور أمام المنصة ...

يتقدم الصفوف ... يحاصره رجال الإعلام ... يقول :

ـ أقترح إرسال برقية للأمين العام للأمم المتحدة ؛ للاهتمام بالمسنين ، وعقد مؤتمر عالمى لهم ، أسوة بمؤتمرات الطفل و المرأة.

. هل أنتم موافقون ؟

تصفيق حاد من الحاضرين .

. موافقة .

و يسجل الاقتراح .

يهمس أحد السعاة فى أذن رئيس الجمعية ... فتبدو على وجهه علامات الاندهاش ... ثم يقوم على الفور مهرولاً إلى تليفون مكتبه ... يغيب دقائق ... ثم يعود مبتسماً ... يصافح الأستاذ عبد الكافى بحرارة ، يتناول الميكروفون ... يصيح فى المجتمعين قائلاً :

ـ بشرى ... بشرى سارة ... اتصل بى الآن ـ تليفونياً ـ مسئول كبير بديوان الرئاسة ... و أبلغنى بأنه تم العرض على الرئاسة ما أذاعته وكالة الأنباء العالمية " أ.ب.ت" الآن على الهواء ... فصدرت التوجيهات فوراً للمسئولين ، كل فى اختصاصه ، بالعمل على معاملة المسنين بكل حفاوة و تكريم ، بما يتناسب مع العطاء الذى قدموه لأوطانهم ... و إزالة أسباب الشكوى فوراً ..

و أن ديوان الرئاسة يتابع تنفيذ ذلك أولاً بأول ... وقد صدر عن الديوان بيان ، أذيع من جميع محطات الإذاعة والتليفزيون فوراً .

يصفق الحاضرون كثيراً ... تعلو الهتافات .. يحاول الحاضرون أن تظهر صورهم فى شاشات التليفزيون ... وخاصة شبكة " أ.ب.ت " العالمية ... يطالب البعض بإحضار جهازى تليفزيون و راديو بالقاعة ؛ ليتابعوا نشرات الأخبار ... وبيان ديوان الرئاسة .

يعود الساعى يهمس فى أذن رئيس الجمعية مرة ثانية ... يتجه رئيس الجمعية إلى حجرة مكتبه ، و يغيب مدة طويلة ... يساور القلق الأستاذ عبد الكافى .. يتجه هو الآخر ؛ ليستطلع الأمر ... لا يعود هو أيضاً ... يسود القاعة همس وأحاديث جانبية ... معظمها تخمينات حول غياب الرئيس و الأمين العام هذه المدة عن الاجتماع .

أخيراً يعودان إلى مجلسيهما ... تبدو أسارير الفرحة على وجناهم ، يمسك رئيس الاجتماع الميكروفون ... و يوجه حديثاً للحاضرين :

ـــ نحمد الله ... نحمد الله كثيراً ... فقد أتى هذا الاجتماع بثمار طيبة ، ولم ينقطع رنين التليفون ؛ لاتصال العديد من المسئولين بنا ، يبشروننا بأخبار سارة ... سيقرأها السيد ال/ين العام ...

ينظر الأســـتاذ عبد الكافى إلى ورقة فى يده .. كتب فيها بعض النقاط للتذكرة ، ثم يقول :

ـ سأذكر من اتصلوا بنا ، وفق ترتيب اتصالهم ـ الأستاذ وكيل الوزارة الخاص بالمعاشـات ، اتصـل بنا ؛ بناءً على توجيهات السـيدة الوزيرة ؛ للتباحث مع بنك العاصـمة ؛ لإلغاء قراره ... وسـيتم بحث ذلك مع رئيس مجلس إدارة البنك اليوم ؛ ليصـــدر تعليماته بإلغاء قرار البنك .. ثم اتصـــل بنا الســـيد نقيب المعلمين، وأبدى اســـتياءه لما حدث مع معلم زميل أفنى شـــبابه وجهده فى تربية العديد من الأجيال، قال الشـــاعر عنه : "كاد المعلم أن يكون رسولاً " ، لـذا فإنه سيدعو مجلس النقابة للاجتماع اليوم ؛ لسحب ودائع النقابة من بنك العاصمة، وإيداعها فى بنك آخر، يُحسِن التعامل مع المســـنين ... بل وعد نقيب المعلمين بأنه ســـيتصـــل بكافة النقابات ؛ لسحب إيداعاتهم وحساباتهم من بنك العاصمة.

يصفق الحاضرون كثيراً ... ثم يستكمل الأستاذ عبد الكافى حديثه وقد عاد إليه شبابه ، قائلاً :

ــ اتصل رئيس جمعية رجال الأعمال ، وأبدى استياءه مما حدث ... وأخبرنا أنه سيدعو رجال الأعمال اليوم ؛ لإنشاء بنك للمسنين يكون من أهدافه الأولى مراعاة ظروف المســنين ... و أنه ســيرحب بودائع النقابات ... و ســيهتم بالنواحى الاجتماعية لأعضــائه بتســهيل قروض لســفريات الحج والعلاج بضمان النقابات .

ثم يضـــيف الأســـتاذ عبد الكافى أن الأســـتاذ رئيس مجلس إدارة بنك العاصمة اتصل شخصياً ، وأبـــدى اعتذاره .... وقرر بأنه سيحضر شخصياً للجمعية صباح باكر ؛ ليعتذر للأستاذ عبد الكافى ، ويقدم له عشرة دفاتر شيكات.

ثم يستكمل حديثه للحاضرين ... ويقول فى زهو المنتصرين :

ـــــــ أعتقد ... بعد هذه الاتصـــالات ... فإننا نرى العدول عن الاقتراح بالإضراب عن الطعام ... ما رأيكم ؟

يصيح الحاضرون بالموافقة ... و يؤكد ذلك الأستاذ عبد الكافى بقوله :

ـ موافقة .

و من وسط القاعة يقف مُسِن ... راجـياً ممن حوله الصمت ، يساعده الأستاذ عبد الكافى بقوله فى الميكروفون :

ـ السكوت من فضلكم .. الهدوء يا حضرات ... زميلكم يريد أن يبدى رأياً ... اتفضل يا أستاذ .

و بسرعة تتجه أجهزة التصوير والتسجيل ناحـية هذا الشخص ، الذى يقول بصوت مرتفع :

ـــــ أمام هذه الانتصـــارات ... فإننى أقترح أن يكون الثالث من أبريل عيداً للمسنين ... يحتفل فيه المسنون كل عام به.

يصفق الحاضرون كثيراً دون انتظار لسؤال الأستاذ عبد الكافى لهم عن رأيهم ، وهنا يضحك الأمين العام بصوت مرتفع ، و منتشياً بالانتصارات التى كان هو السبب فيها ، قائلاً :

ـ موافقة !..

و يبدأ فى تسجيل الاقتراح .

* * * * *

تدخل زوجة الأستاذ عبد الكافى الشرفة ؛ لترفع الفنجان فى هدوء فقد لاحظت أن زوجها استغرق فى النوم ، و مالت رأسه على كتفه ... لكنها لاحظت شبه ابتسامة على شفتيه ، و أنه يهمس ببعض الكلمات غير المسموعة .. اقتربت منه لتسمع ... سمعته يقول كلمة :

ـ موافقة !! .

كِلاَنَا يَسْرِقُ اللَّحْم!!

ضـحكت سـنية ضـحكة طويلة بصـوت ناعم ، ثم قالت بدلال ، وهى مضطجعة على حصيرة بيتها الريفى :

. لن أنولك ما فى بالك يا مهاود ... إلا إذا خرجت وسمعت كلامى.

باستعطاف رد عليها زوجها ؛ محاولاً إقناعها :

ــ يا سنية اليوم الخميس ... أهل البلد سهارى ، والخفير عبد الجبار حالف يمين ، ليخرشمنى ، و يتهمنى بأية تهمة ، لو شـافنى بعد العشـا حارج الدار .

ـــ رئيس الدورية مر بدورية السـوارى أمس ... بالليل ، فلن يمر اليوم ... جميع الخفراء يعرفون ذلك ... يعنى لن تقابل أى أحد منهم فى سكتك يا مهاود و أنت ....

قاطعها زوجها بسرعة ، قائلاً :

ــــ إلا عبد الجبار ... إلا عبد الجبار يا ســـنية ... طول الليل و هو يمر كالديدبان ... حتى حارتنا المسدودة الصغيرة ... لا زم يمر فيها ... ليال كثيرة نسمع صوته أنا و أنت ، و هـو ينادى بصوت عـال : "من هناك ؟ " .

. أنت حر يا مهاود ، أنت فى حالك ، و أنا فى حالى الليلة .

. أمرك يا سنية ، ولو شافنى عبد الجبار و مسكنى ، ذنبى فى رقبتك.

يعيد مهاود ارتداء ملابسه ، فيرتدى جلباباً داكن اللون ، يأخذ فى يده جوالاً من الخيش، يضعه تحت إبطه، بينما تنهض زوجته وتوصله إلى باب الدار، فيفتح المزلاج بحرص، وتشجعه زوجته ، وهى تودعه، قائلة :
. مستورة يا مهاود .

يخرج متلصصاً إلى الحارة التى يسودها الهدوء، لا يجد أحداً بها ، ويبتلعه ظلام الحارة ، بينما تغلق سنية خلفه الباب .

لا يدرى مهاود ، و هو يمشى بالحارة ، عن السر فى خفقان قلبه بسرعة ، ويتساءل عن سبب شعوره بالانقباض والخوف على غير العادة .

أ لأن اليوم الخميس ؟ ... وأن الخفير عبد الجبار ضبطه من شهرين تقريباً بسرقته ، و كان ذلك فى يوم خميس أيضاً ... ربما كان ذلك السبب فى شعوره بالانقباض ....

مر ما حدث سريعاً فى ذاكرته ، و هو يمشى بالحارة ... حيث تعود مهاود ، و تعودت زوجته معه ، أن يسرق لها كل خميس تقريباً ، بعض الطيور ، فتعدها له فى اليوم التالى ، فهو رقيق الحال ، و لا يتناول اللحم إلا بهذه الطريقة تقريباً ، وعندما يعود زوجه بغنيمته ، فإن ذلك يكون سبباً لقضاء وقت ممتع ، حيث تشعر زوجته برجولته أكثر ، وقد يكون ذلك مرجعه إلى إحساسه بالشجاعة والمغامرة ، من وجهة نظره طبعاً.

وتصرفاتهما هذه ، هى امتداد لتصرفاتهما السابقة قبل الزواج ، فكثيراً ما كانا يتقابلان فى الخلاء بعد الغروب ... خلسة ... بعيداً عن الأعين. فيسرق لها بعض الثمار الناضجة بالحقول و الحدائق ، و يقدمها لها .... وهما ينتشيان بكلمات الغزل.

لا يزال مهاود يتذكر سريعاً ، و هو يمشى فى ظلام الحارة ... مستكملاً ما حدث له فى ذلك الخميس الحزين ... عندما ضبطه الخفير عبد الجبار ... فى هذا اليوم لم تصادفه صعوبة تذكر ... فقد توجه إلى مزرعة الدواجن المقامة حديثاً خارج القرية ... فهو يعلم جيداً أن الخفير الخصوصى لها ينام بحجرته ... و نومه ثقيل ... و يغلق الباب عليه ... نجح مهاود فى سرقة عدد من الدجاج ... وضعهم فى الجوال ... عاد مسرعاً لبيته .. لم يقابله أحد من الخفراء أو الأهالى .

تخيل استقبال سنية له بابتسامتها الكبيرة ، كما يحدث فى كل مرة ، يعود محملاً بصيد ثمين لها ... سرح فكره فى الليلة الجميلة التى سيقضيها ... ها هو يقترب من الحارة التى يسكنها ... ازداد شعوره بالاطمئنان ... بدأ يدخل الحارة ... أحس بالأمان أكثر .. لكن فجأة ... كأن الأرض انشقت و خرج منها المارد عبد الجبار ... يصيح فيه بصوته الجهورى ، قائلاً :

ـ من هناك ؟

المفاجـأة أربكت مهـاود ... تخشـب فى مكانه ... لم يستطع الجرى ... أجابه متلعثماً :

ـ مه ... مه ... مهاود.

يستفسر عبد الجواد منه عن سبب وجوده خارج البيت فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، يجيبه بقوله :

ـ أنا ... كنت فى الغيط .

ـ و ما الذى معك ؟

ســـكت مهاود ، مفكراً للبحث عن إجابة ... لكن الفراخ أجابت بصياحها ، كأنها سمعت سؤال عبد الجبار ، فأكمل الخفير حديثه ، قائلاً :

ـ فراخ ؟؟ ... طبعاً مسروق يا مهاود ؟

و يمد عبد الجبار يده ، ممســكاً مهاود من جلبابه بقوة ، حتى لا يهرب، فيتوسل إليه قائلاً :

ـ حرام ! ... حرام عليك يا شيخ الخفراء ... أنا مظلوم ... أنا أسرق أنا ؟؟ ... سأقول الحق ... و أنا راجع لقيت الجوال وبداخله الفراخ ملقى فى الطريق ... أخذته ، لكن فى نيتى أسلم الفراخ والجوال للعمدة الصبح ، و هو يبحث عن صاحبهم ...

أمسك عبد الجبار بجوال الفراخ ، ثم تحدث لمهاود ، و هو يهدده :
. هل هذا كلام معقول يدخل الدماغ يا ناس ؟

مع ذلك سأصدق كلامك يا مهاود ... و سأستر عليك هذه المرة ... أما الفراخ سأضعها فى بيتى لغاية ما يبان لها صاحب ، اجر يا مهاود لبيتك ... و يكون فى علمك .. لو شفتك خارج دارك بعد العشاء ... يمين على يمين ... لأعمل لك تهمة ... و أخرشمك .

تركه عبد الجبار ، فأسرع مهاود إلى بيته ، يجر خلفه أذيال الخيبة ، ويقضى مع زوجته خميساً حزيناً .

تداعى شريط ذكريات تلك الليلة ، بخاطر مهاود ، أثناء سيره بالحارة ، و التى أوشك أن يبلغ نهايتها ، حيث تتصل بشارع داير الناحية العريض نسبياً ... زاد قلبه خفقاناً ... توقف فى نهاية الحارة المظلمة لحظات ؛ ليستطلع حالة الشارع .

يا للحظ الأسود ! ... من ؟؟ .. عبد الجبار بشحمه و لحمه ، وبسلاحه الأميرى ... إنه قادم فى مواجهته ... كان عبد الجبار ظاهراً بوضوح تحت مصباح الشارع ... يحمد الله مهاود أن الحارة لم تدخلها أعمدة الإنارة ... فستره الظلام ... استدار مسرعاً حتى لا يراه عبد الجبار ... توقف أمام أحد أبواب الحارة ... وجد أن الباب يدخل قليلاً عن مستوى جدار البيت ، فيسمح بالاختباء فيه ، اختبأ فى هذا المكان ، إلى أن يمر عبد الجبار بالشارع ، فيسرع عائداً لبيته بالحارة ...

بدأت خطوات عبد الجبار تُسمع فى سكون الليل ... صوت الخطوات يزداد وضوحاً ، إنه لم يستمر فى السير بامتداد شارع دائر الناحية ، بل دخل الحارة ...

صاح عبد الجبار عندما دخلها :

ـ من هناك ؟ ... من هناك ؟ ...

كـــاد قلب مهاود يقفز من صدره رعباً ... انكمش ... ازداد التصاقاً بالباب الخشبى ، تبين له أن الباب غير مغلق ... جاءه الفـــرج إذن ، دفع الباب و دخل ، أعاده إلى موضــعه بهدوء ، إنه يعرف صــاحبة هذا البيت ، إنها أرملة شابة فائقة الجمال ، تخدم بمنزل العمدة ...

سمع صوتها ينبعث من إحدى الحجرات ، تنادى :

ـ عبده ؟ ... يا عبده .

يحدث مهاود نفسه ، و يتساءل :

ـ ما هذا النحس الذى يلازمه طوال هذه الليلة ؟! ... إن المرأة ليست نائمة .

فيسرع بالاختباء متقرفصاً خلف أحد الأجولة المملوءة ، بوسط الدار ، و فى موضع مظلم ، بعيداً عن ضوء المصباح السهارى .

يســتكمل حديثه مع نفســه ... إنه لا ينوى ســرقتها ... إنه ســيمكث دقائق فقط ، ثم يخرج بعد أن تبتعد خطوات عبد الجبار عن الحارة ... يحدث نفسه ... بأنه سيتوب عن السرقة ... يتبادر إلى ذهنه ســؤال ، وهو يجلس القرفصاء :

. ماذا يحدث لو أن المرأة قامت ، و وجدته بمنزلها ، فاستغاثت ؟

يكتئب و هو يجيب بنفسه على تساؤله بأن عبد الجبار سيلبى استغاثتها على الفور ، لن يلفق له التهمة ، فهى ثابتة عليـــه ، لا محـــالة .... يتذكر زوجته سنية ، و يصب عليها اللعنات ! .

يسأل نفسه ، و لا يزال جالساً القرفصاء :

ــــ لماذا نادى عبد الجبار .." من هناك؟ ".. هل رآه ؟ أو رأى شخصاً آخر أراد معرفة من هو ؟ ... ربما ... احتمال كبير .

ازداد مهاود انكماشـــاً فى موضـــعه ، عندما سمع خطوات عبد الجبار بوضوح ... إنها تُسمع بوضوح أكثر ... و أكثر ... و هذا يـــدل على أنه يقترب ... إن باب المســكن يُفتح ، يغلق القادم الباب خلفه بالترباس ... ينهار مهاود ، و هو يحدث نفسه قائلاً :

. واقع ... واقع يا مهاود لا محال ...

يسمع صوت الأرملة ينبعث من حجرتها :

. عبده ؟ ... يا عبده .

يجيبها القادم :

. مساء الخير ...

إنه عبد الجبـــار بسلاحـــه الأميرى ... يدخـــل إلى حجرتها ... يسمع الأرملة تحدثه بأنها تركت الباب مواربـاً ؛ خشـــية أن تســـتغرق فى النوم، كما حدث يوم الخميس الفائت .

يضحكان عندما قال لها عبد الجبار :

ـ قلت " من هناك؟ " حوالى عشرين مـــرة ، لغاية ما فتحت الباب !! ، " نومك بقى ثقيل " .

تجيبه بدلال :

. من التعب ...

يعودان للهمس ... و للضحك ... بينما مهاود يجلس القرفصاء .

أشـــياء كثيرة فهمها مهاود، وهو فى جلســـته هذه ، كانت خافية وبعيدة عن تفكيره ، انفعالات شـــتى انتابته ... وقيم عديدة انهارت و تبدلت أمامه ... شعور غريب يحـــس بـــه الآن ... لم يَعُد يهـــاب عبد الجبار ... تهاوت صورته ... هز رأسه ، و هو يحدث نفسه ، قائلاً :

. " كلانا يسرق اللحم " ...

هب واقفاً تسلل بخفة ناحية الباب ... واضعاً تحت إبطه جوال الخيش ... فتح الباب بهدوء و خـــــــرج ... لم يتوجه إلى بيته ، بل اتجه إلى مزرعة الدواجن .

فازت هذه القصة عام ١٩٩٤م فى مسابقة " نادى القصة " للقصة القصيرة ، و نشرت بجريدة الأهرام فى ١٩٩٥/٩/٨م بملحق الجمعة .

فى انتظار الترقية

هكذا مرت السنوات سريعاً ، فقد مضى على تخرجه من كلية الشرطة ، ما يقرب من الربع قرن ، و وصل فى سلم الرتب العسكرية إلى نهاية رتبة العميد ... وهى من الرتب التى يُرقى الضباط فيها بالأقدمية ... أما الآن ، فهو على وشك الترقية للاتبة اللواء .و هى رتبة يُرقى فيها الضابط وفقاً لقواعد الاختيار.

و هذا يعنى أنه قد لا يُرقى ، و يُحال للمعاش برتبة العميد ، أو يُرقى لرتبة اللواء ، مع إحالته للمعاش فى نفس الوقت ، أو يُرقى مع استمراره فى الخدمة .

و مع أن الإحالة للمعاش فى هذا النظام العسكرى ، لا يرتبط بالعمر ، إلا أن كلمة المعاش تُشعِرُه بأنه أصبح كهلاً ، و بلا عمل ، رغم إحساسه بأنه أكثر شباباً من ذى قبل، و أكثر نشاطاً وحيوية من شباب هذا الجيل، خاصة أن عمره لم يتجاوز الخمسين عاماً ، ساعده على ذلك طبيعة عمله، وأنه ظل يمارس الرياضة طوال حياته بلا انقطاع ، و مع ظهور شعيرات بيضاء على جانبى رأسه ، فإنه لم يشعر أبداً بتقدم سنه ، لا سيما أن قدرته على العطاء تزداد يوماً بعد يوم.

و اليوم ـ بالنسبة له ـ لهو يوم حاسم فى حياته ، فسوف يعتمد فيه الوزير حركة ترقيات الضـــباط ، و التى ســـتعلن فى ذات اليوم . فى هذه الحركة سـيتقرر مسـتقبله خلال السـنوات القادمة ، هل سـيحال للمعاش، أم يُرقى ويستمر فى العمل ؟

إنـه يثق فى نفســـه ، فقـد تنقـل فى بـدايـة ، فى مواقع عـديـدة ، و فى تخصـــصـــات مختلفة ، و عمل فى بعض الأماكن المهمة ، وتُرِكَتْ بصـــماته الشجاعة فى استتباب الأمن فى كل تلك المواقع ، لكنه ـ اليوم ـ يشعر بالقلق ، وذلك لعدم وجود صلة قوية بكبار المسئولين بالوزارة ، ممن بيدهم الأمر ، فيخشى من عدم تقدير جهوده و كفاءته فى العمل.

ازداد قلقه عندما تساءل :

ـ ماذا هو فاعل إذا ما قُدِّر و أُحيل للمعاش .

لقد كان منهمكاً فى العمل ليل نهار ،كان كل فكره و وجدانه منصـــباً على العمل ... و العمل وحده ؛ ليطور الأداء فيه إلى الأحســن ، وحل مشــاكل الناس وخلافاتهم ، فلم يتبق لـديه فســـحة من الوقت ، ليفكر فيها عن مشـاريعه الخاصـة ، إذا ما أُحيل للمعاش !، لم يدر بخلده أبداً أن هذا الوقت سوف يأتى بهذه السرعة .

إنه اليوم بين أفراد أسرته بالإسكندرية يقضى معهم راحته الجمعة ، وهى خمسة أيام من كل شهر ، يلبى فيها احتياجات الأسرة ، ثم يعاود السفر إلى عمله بإحدى محافظات السعيد البعيدة ، تطالع زوجته جريدة الصباح ، و هى جالسة بجواره ، تجد بها خبراً بعنوان " اعتماد حركة ترقيات ضباط الشرطة اليوم " ، تُناوِل الجريدة لزوجها ، و تحيطه بالخبر يجيبها بأنه يعرف ذلك ، و أنه أوصى زملاء له بمديرية الأمن ؛ لإعلانه . تليفونياً . فور علمهم بها .

يبدو القلق على زوجته ـ التى تحاول إخفاءه ـ فتتحدث مع زوجها بحنان زائد ، يشعر هو بذلك ، يُحدِّث نفسه بأن خير وسيلة لتبديد هذا القلق ، هو خروجه ، و التمشية وحيداً هذه الساعات ببعض الشوارع المزدحمة ، فهو جرَّبَ ذلك بنجاح عدة مرات من قبل .

ينفذ ذلك فعلاً ، و يسير بمشية رياضية مخترقاً أحد الشوارع الهادئة المؤدى إلى باكوس ، حيث الازدحام والمحلات الكثيرة .

تذكر ـ و هو يسير ـ بعض المهن الأخرى ، التى كان يمكن أن يلتحق بها ، و يمتد العمل بها إلى سن الستين ؛ كى يُحال إلى المعاش ، لكنه غير نادم ؛ لأنه فضل العمل بالشرطة عن الالتحاق بتلك المهن . فعمله بالشرطة يشبع حاجته فى القيام بأدوار الشهامة ، التى هى إحدى خصاله .

تساءل ـ و هو لا يزال يسير ـ مع نفسه :

ــ هل يمكن أن يجد ذلك الإشباع فى أى عمل آخر يلتحق به ، إذا ما أُحيل إلى المعاش ؟

يصل إلى الشارع الذى يخترقه مسار تـــرام باكوس ، أحس بحنين ، وهو يسير بتلك المنطقة التى كانت مدرسته بها ، فيستعيد بعض ذكرياته سريعاً ، و يقترب من محطة ترام باكوس ... يتجه ناحيتها ؛ ليطلع على مايعرضه بائع الصحف الموجود بها ، لكنه يتوقف عن السير لحظات ، فقد جـــاء تـــرام باكوس المتجه إلى ناحية فيكتوريا ليقف بالمحطة ... ينتظر الضـــابط نزول الركاب ، و صـــعود الآخرين إلى الترام ؛ ليعاود المســـير ، ويتجه إلى الجانب الآخر من المحطة ، حيث يوجد بائع الصحف.

لحظات .. وبدأ يتحرك الترام بطيئاً ، ومع بداية تحركه، يشـاهد الضـابط رجلاً كهلاً يحاول ركوب الترام واللحاق به ، لكن الترام يزيد من سرعته فجأة ، بينما الأبواب قد أُغلقت على ذراع الرجل الكهل ، والذى ظل جســـمه بالخارج ... يحاول الكهل الجرى فى اتجاه الترام ؛ خشـــية الوقوع ، و حتى لا ينكسر ذراعه ... يكاد يترنح ، فى لمح البصر يقفــز الضابط ناحية الكهل ، و يحمله بين ذراعيه ... و يجرى به بنفس سرعة الترام الذى يزيد من سرعته ... و يزداد صــراخ الواقفين بالمحطة " حاســب ... حاســب " ، بينما الترام يسـير و يزيد من سـرعنه ، و يسـتمر الضـابط أيضـاً فى الجرى حاملاً الكهل بين ذراعيه .

لكن الضابط بعد جريه الفجائى هذا ، شعر بأن حمل الرجل أصبح ثقيلاً عليه ، ولا يقدر على حمله أكثر من تلك المســافة ... و نع ذلك يتحامل ويســتمر فى الجرى بكل طاقته ... بينما الصــرخات لا تزال تعلوا أكثر " حاسب ... حاسب " ، وتسود الدنيا فى عينى الضابط ، فهو لا يقوى على التنفس ... يكاد يتوقف قلبه ، و لا يجد حلاً أمامه إلاَّ بترك الرجل ليسـقط من بين يديه !!.

بكل إحساسه و إيمانه ... يتجه إلى الله ... لينقذه ... لينجده ... ليمده بالقوة ... فأعصابه و عضلاته بدأت تخور ... و سيسقط الرجل "يارب ... انقذنى ...عاونِىّ " دعوة من قلبه ، ما أن ينتهى منها ، إلا ويقف الترام على الفور ، و تُفتح أبوابه . لا يصدق الضابط نفسه .. يفك يديه من بعضهما، وقد تشـابكتا ليحمل الكهل، والذى لايصـدق نفسـه هو الآخر و يقف مذهولاً ... يتجمع حولهما الناس بالمحطة ... تُســمع عبارات متناثرة موجهة للضابط .

- " ربنا يحميك " .
- " شهم و الله " .

بدا على وجه الضابط علامات الإعياء الشديد، أمسكه أحد أولاد البلد من يده برفق ، دعاه للجلوس على مقعد ؛ ليستريح بمحل إصلاح الأحذية المواجه للمحطة ... و أسـرع ليقدم زجاجة مياه غازية له ... تناولها الضـابط شاكراً ... كم كان فى حاجــة إلى الراحة حقيقة ، يحمد الله فى سره ، ويحدث نفسه متسائلاً :

ـ ما موقفه أمام هؤلاء الناس ، لو أن قواه خـارت ، و سقط الرجل من بين يديه ؟؟

شكر الرجل الكهل الضابط على مروءته ، بينما أخذ ناظـر المحطة يؤنب سـائق الترام ؛ لتحركه قبل أن يتأكد من صـعود الركاب جميعاً ، وذلك أمام الضابط و الكهل .

ابتسم الرجل الكهل فى سخرية ، ثم وجه حـديثه لناظـر المحطة والسائق قائلاً :

ـ كنت أنا ناظراً لهذه المحطة قبل إحالتى للمعاش منذ عشر سنوات ... كنت أراعى بألا يتحرك الترام إلا بعد الاسـتماع إلى الصـفارة .. و لأننى لم أسـتمع إليها، فكنت مطمئناً أن الترام لن يتحرك .. كنت أعتقد أنكم لا تزالون تنفذون التعليمات !.

يجيبه ناظر المحطة بقوله :

ـــ التعليمات باقية كما هى ... و سـأثبت مخالفة للسـائق فى تقريرى ، ولو سمحت اعطنى بياناتك لأثبتها فى التقرير .

ـ اسمى محمد عبد القادر ... ناظر بإدارة النقل سابقاً ، ومقيم بشارع البحيرة رقم ١٦ جناكليس بالإسكندرية.

و يدون ناظر المحطة تلك البيانات فى ورقة معه ، ثم يكمل حديثه مع الكهل قائلاً :

ـــــ وأنا اسمى عبد العظيم السـيد ناظر المحطة ... و الترام قطار رقم ١٨٥ حرف ١٩ .

يدعو ناظر المحطة الرجل الكهل لركوب الترام ، بينما يعتذر له السـائق ، طالباً الصفح . و يهم الضابط بالانصراف ... يصافحـــه بعض من التفوا حوله بحرارة ... بينما يودعه ابن البلد ، قائلاً له :

ـ مع السلامة يا بك ... أنت كنت شهماً ... و بطلاً كبيراً .

و ســار الضــابط متجهاً إلى منزله ... بعدما تعلم من تلك الحادثة أن الشـهامة و البطولة توجد فى كل الأعمال ، و فى كل الأزمنة و الأمكنة فهى لصيقة بالإنسان ، و ليس بنوع العمل الذى ينتسب إليه .

يصل إلى بيته ، تقابله زوجته بفرحة ، وعلى شفتيها ابتسامة كبيرة وهى تقول له :

ـ مبروك ... زميلك اتصل ... يهنئك بالترقية !.

بلا عنصرية .. !

عاطف ، كان أول دفعته من خريجى كلية الهندســة العام الماضـــى ... بسهولة تعين معيداً بكليته ... و بصعوبة جمع مبلغـاً من المــال ، اشترى به سيارة قديمة ... متهالكة ، لم يهتم بشـكلها الخارجى وبحالتها السـيئة ، فهو كمهندس ميكانيكا ، سيتابع صيانتها ، وتجديدها تدريجياً ، وسيعيد طـــلاء هيكلها ،

حتى تصبح كالجديدة ... و ذلك فور تدبير المبالغ اللازمة لذلك .

سعادته اليوم غامرة ... فهو قد أصبح يمتلك سيارة ... و يقودها الآن مختالاً ـ رغم حالتها ـ ، مصطحباً معه " ركس "كلبه الأرمنت الأسود المدلل ، الذى جلس بالمقعد الخلفى للسيارة ، و سعادة " ركس " لا تقل عن سعادة صاحبه .

أثناء تجوال السيارة بشوارع مصر الجديدة ... أضاءت إشارة للمرور الضوء الأحمر ... توقفت السيارات فوراً عن المسير .. و توقفت سيارة عاطف بجوار سيارة مرسيدس " شبح " حديثة ... تقودها فتاة جميلة ... بل فائقة الجمال ... لا تضع أصباغاً على وجهها ... وعلى المقعد الخلفى لسيارتها جلست كلبتها البيضاء الجميلة ، و قد زادها جمالاً ذلك الشريط الأحمر الذى طوق رقبتها .

أُعجِبَ عاطف بفتاة المرسيدس .. تمنى لو توافق بأن تكون شريكة حياته ... فكر فى متابعتها بسيارته . أثناء ذلك نبح " ركس " ثم نبحت الكلبة البيضاء رداً عليه .. أثار ذلك الفتاة ... فابتسمت ... تشجع عاطف ، و ابتسم لها ... لكن الفتاة رفعت حاجبها الأيسر متبرمة ... ثم نظرت إلى عاطف ... بعدها أخذت تقلب نظرها لسيارته القديمة ... ثم عاودت النظر إليه بازدراء ... أحس عاطف بالندم ؛ لأنه ابتسم لها ... أضاءت الإشارة الخضراء ... فبدأت السيارات فى التحرك ... و مع بداية التحرك ... فوجئ المارة برؤية الكلبين "الأسود و الأبيض" يقفزان من السيارتين ، و يسيران سوياً ، بلا عنصرية أو طبقية .

و لم يكتمل التحقيق بعد .. !

. طه أفندى .

. أفندم سعادة الوكيل.

. ألم ترد إشارة من المستشفى بإمكان استجواب المصاب ؟

. لأ .. الخفير . حتى الآن . لا يمكن استجوابه .

. لقد أُطلِقت النار عليه من مسافة قريبة .. و بالنهار .. بعدها سُرِقَ سلاحه .. و ربما الخفير شــاهد أحد مرتكبى الحادث ، و تعرَّفَ عليه ... أود أن أسأله سـؤالاً واحـداً فقط ... هل تعرَّفَ على أحدهم ؟ .... لا أريده أن يجاوبنى إلاّ بكلمات قليلة جداً ... لن أُجهِدَهُ .

. نرسل للمستشفى إشارة استعجال يا أفندم ؟

ـــ لأ ... سنذهب للمستشفى الآن و فوراً ... لن أنتظر رد المستشفى ... أخشـــى أن يلفظ الخفير أنفاســـه ... بينما يكون الرد فى أحد أدراج "الروتين" محبوســاً ... نبِّه على جندى النيابة باســتدعاء ســيارة أجرة للانتقال .. وأحضر ملف القضية .

. حالاً .

* * *

. ستحضر السيارة حالاً ... و ها هو ملف القضية .

ـــ أقعد يا طه أفندى ... اقرأ سريعاً ما دوناه فى التحقيق عن أقوال الشهود ... لتذكرنى به ، لحين حضور السيارة .

. إشارة الحادث تفيد بلاغ مأمور المركز بأن عمدة قرية الـ ....

.كفى .. كفى .. لا داعى للبلاغ ، أتذكره جيداً .. اقرأ أقوال العمدة.

سألناه : " هل توجد خلافات أو خصومات ثأرية بين الخفير ، و أحد من أهل القرية ؟ ".

أجاب العمدة : " لأ . و هو سمعته طيبة ، ومحبوب من أهل البلدة".

ثم سألناه : "و ما العمل الذى كان مكلفاً به وقت وقوع الحادث ؟".

أجاب : "كان مكلفاً بمرافقة الطبيب البيطرى و من معه .... الطبيب كان فى مأمورية ؛ لفحص مواشى القرية ؛ خشية الإصابة بمرض معد ... كلفه الطبيب باستدعاء أحد المواطنين من حقله ؛ لأن الطبيب اكتشف إصابة إحدى مواشيه الموجودة بحظيرة بيته ؛ فأسرع الخفير لاستدعائه ، و كان يحمل بندقيته الأميرية ... ما أن سار بضع خطوات فى الطريق الزراعى ... إلا و أُطلقت عليه عدة أعيرة نارية من زراعات الذرة المجاورة ، ثم سُرِقت بندقيته ... أسرع بعض الأهالى ممن سمعوا صوت الأعيرة النارية لمكان الحادث ، فوجدوه مصاباً والدم ينزف منه غزيراً ..

. أخطرنا المركز ، و نُقِلَ المصاب بسيارة الإسعاف للمستشفى الأميرى
كانت حالته خطيرة ... و لم ينطق بأية كلمة " ....
.كفى هذا القدر من أقوال العمدة .. اقرأ أقوال ضابط المباحث .
سألناه : " ما معلوماتك عن الحادث ؟ ".
أجاب الضابط : " الخفير .. حسن السمعة .. و لا توجد خصومات بين
عائلته و أى من العائلات الأخرى بالقرية ... و يرجح أن الخفير
أطلقت عليه النار من الجماعات المتطرفة ؛ لأخذ سلاحه الأميرى
... وقد قمنا بتمشيط المنطقة فور وقوع الحادث لضبط المتهمين ،
إلا أننا لم نتمكن من ضبطهم ؛ لاحتمال هروبهم بزراعات الذرة ...
و جار موالاة البحث و التحرى لمعرفته و ضبطهم ".
ثم سألناه : " و ما دليلك على أن مرتكبى الحادث هم من الجماعات
المتطرفة؟ ".
أجاب الضابط : " تكرار وقوع مثل تلك الحوادث فى القرى المجاورة بإطلاق
النار على الخفراء و الاستيلاء على أسلحتهم ، وأحياناً يتركون فى
موقع الحادث رسائل مكتوبة ؛ بقصد إرهاب الخفراء و رجال
الشرطة .. كما أننا ضبطنا بعض الأسلحة التى سُرِقت بعد قتل
بعض الخفراء ، وضباط الشرطة ، طرف بعض الإرهابيين عند
ضبطهم "...

. يكفى هذا يا طه أفندى ... اقرأ أقوال زوجة الخفير .
. أجابت سنية محمد إبراهيم زوجة الخفير نفادى عن معلوماتها عن الحادث بقولها : أنا ليس لدى معلومات ... كل معلوماتى أن زوجى نفادى طوال الليل والنهار ، و هو فى خدمة أهل البلد والحكومة ... و يحب الخير لكل الناس .. و طول وقته يكد لأجـــل يُطعِم أولادنا الخمسة الصغار ... هذا كل ما عندى ".
و سألناها : "هل تتهمين أحداً بارتكاب الحادث ؟".
أجابت : " لأ .. و البركة فيكم يا حكومة " .

يدخل عندئذ الجندى المعين للحراسة بالنيابة ، حجرة وكيل النيابـــة بعد طرقه الباب ، و الإذن له بالدخول ، قائلاً ، وهو يُحيِّى وكيل النيابة :
. السيارة وصلت و فى انتظار سعادتك يا أفندم .
. شكراً .
أجابه وكيل النيابة ، ثم وجه حديثه لكاتب التحقيق ، قائلاً :
ــــ أعد فتح التحقيق يا طه أفندى ، واثبت قرارنا بالانتقال للمســتشــفى الأميرى ؛ للوقوف على إمكان استجواب المصاب من عدمه .

* * *

ـ اسمعنى يا نفادى ... سأسألك ... و عليك أن تجاوبنى باختصار شديد ... و لا تجهد نفســـك ... هل شـــاهدت المتهم الذى أطلق عليك النار و سرق سلاحك ... هل تعرف اسمه ؟

ـــ لا يهم معرفة اسم الجانى يا بك ... إنه أحد أفراد جماعة تعتنق فكراً دينياً متطرفاً ... تستبيح القتل ؛ ليسود فكرهم ، كما لا يهم معرفة اسم المجنى عليه الذى أصـــابوه أو قتلوه ... و ســـواء كان الخفير نفادى أو الخفير حسنين ... فكلاهما واجبه تنفيذ القانون . لماذا يحاولون قتلنا نحن الخفراء يا بك ؟ ... هل نحن الذين شـرَّعنا القانون ... و هل نحن بيدنا تعديله ؟ ... هل يصح أن يحدث هذا فى بلد إسلامى يا بك ؟

* * *

. سيادة الوكيل ... سيادة الوكيل ... اتفضل ... وصلنا المستشفى.

ـ هه ... معذرة ... طوال الطريق كنت أفكر فى أساس المشكلة .

ـ أية مشكلة يا أفندم ؟

ـ لا شئ ... !! لا شئ !!...

يدخلان المستشفى ... يسيران بهمة فى إحدى الطرقـات الطويلة ، وقد عرجا فى طريقهما إلى مكتب الطبيب المنوب ، فاصـــطحباه معهما ، وأثناء سيرهم

أوضـح وكيل النيابة للطبيب بأنه لن يجهد الخفير المصـاب ، وأنه يريد معرفة اســم المتهم فقط ، بعدها يمكن أن يســتكمل التحقيق عندما يســترد كامل صحته ... فلا يمانع الطبيب .

وأمام باب حجرة يقف عليها من الخارج جندى بســلاحه للحراســة ، أشار الطبيب نحوها ، موضحاً بأن المصاب بداخلها .

يدخلون الحجرة ... يجدون الخفير ممداً على سرير أبيض ، مغمضـاً عينيه ، كأنه نائم نوماً عميقاً ... يسـتعد كاتب التحقيق لتدوين الأسـئلة والأجوبة ... بينما الطبيب يطمئن على صـحة المصـاب ، ونظراته تروح وتجئ بسـرعة ما بين الأجهزة ، والمحاليل المتصلة بذراعى الخفير ... ثم يضع السماعة على صــدره ... أخيراً ... يهز الطبيب رأســه أســفاً لوكيل النيابة ، مُخبِراً إياه بأن المصاب قد فارق الحياة منذ قليل !!.

أ لم يحن الوقت ؟؟

وقفت على رصـيف الميدان بين الجماهير المحتشـدة ؛ لأشـاهد مراسـم تشـييع الجنازة العسـكرية لأحد شـهداء الشـرطة ، الذى قام بعمل بطولى ، مضحياً بنفسه ؛ ليفتدى أرواح رهائن بريئة من النساء و الأطفال.

لقد تحدثت عنه ـ طوال أمس ـ وسائل الإعلام جميعها ، و نال فى مرقده ـ لبطولته ـ محبة المواطنين و دعواتهم بأن يدخله الله فسيح جناته.

كان من بين الواقفين بجوارى، رجل رجل و زوجته تجاوزا العقد الرابع من عمرهما ، يبدو من ملامحهما و زيهما أنهما من إحدى الدول العربية الشقيقة ، لعلهما يكونان من الإخوة العرب الذين يفضلون قضاء فترة من الصيف بالقاهرة ، فشاء حظهما فى تجوالهما أن يشاهدا تلك الجنازة العسكرية .

اشتد الازدحام على الرصيف، و تدافع الواقفون بعضهم لبعض ، نتج عن ذلك أن داس الرجل الواقف بجوارى على قدمى ، تألمتُ ... أسـرع بالاعتذار ... شـاهد علامات الألم بادية على وجهى ... كرر اعتذاره ... كان مهذباً ... فهونت عليه الأمر ، قائلاً :

ـ لا شئ حدث ... لا شئ .

ثم بادرته بالحديث ؛ تأكيداً لذلك ... سألته بلطف ، قائلاً :

ـ الأخ هنا بالقاهرة للسياحة ؟

ـ أبداً و الله ... حضرنا بغرض علاج حرمنا ...

ثم همس لى بصوت خفيض ، قائلاً :

ـ لنا ولد مفقود ... مفقود منذ الحرب ... لا نعلم عنه شيئاً ... و من وقتها ـــ يا أخى ـــ و أمه فى حالة ذهول ، وأصبح لسانها لا يقوى على النطق والكلام .. احتار معها الأطباء.. لكن الحمد لله فقد طمأننا طبيب مشهور بالقاهرة أمس ... قال إنه مرض نفسى .. و ستشفى بإذن الله .

حزنت لسماع هذا الكلام ، نظرت إلى وجه زوجته ، فوجئت فى عينيها حزناً عميقاً ... قلت له مواسياً :

ـ بإذن الله تشفى فى القريب .

ثم دعوت الله صادقاً ؛ لكى تشفى من مرضها .. شكرنى الرجل .

بعدها ساد الصمت ... فقد صدحت الموسيقات العسكرية إيذاناً ببدء مراسم تشييع جثمان الشهيد ... بالخطوات البطيئة سارت جموع المشيعين ... تقدم الجميع حملة أكاليل الزهور ، حملها الجنود ... كانت الأكاليل مزينة بشرائط بنفسجية اللون ، مكتوب عليها عبارات لتوديع الفقيد ... نعته بشهيد الوطن ... فى أعقابهم ـــ سارت على جانبى الطريق ـــ مجموعتان من الضباط بزيهم الرسمى ، كان أحدثهم فى المقدمة ثم الأقدم فالأقدم ... على سيارة إطفاء وُضِع جثمان الشهيد داخل نعش ملفوف بعلم الوطن . التف حول الجثمان عدد من جنود الإطفاء بزيهم التقليدى وخوذاتهم النحاسية اللامعة ،

بعدها سـار بقية المشـيعين فى موكب مهيب ، تقدمهم كبار رجال الدولة و أهل الفقيد.

كان المشـهد مؤثراً ، فلم يتمالك بعض الواقفين أنفسـهم ، فانخرطوا فى البكاء، وبعض النساء ـ الواقفات بالشرفات ـ أطلقن الصراخ والنحيب أما المرأة ذات الزى العربى ، الواقفة مع زوجها بجوارى ، فقد غافلت زوجها فجأة .. وانطلقت تجرى خلف عربة الإطفاء ، محاولة أن تلمس نعش الفقيد.. لقد هزها الموقف تماماً .. ففاضت مشاعر أمومتها .. وتوحَّدَ إحساسها تجاه الابن الفقيد .. و الابن المفقود ! ، فصاحت بأعلى صوتها :

ـ يا ابنى ... يا حبيبى ... يا ضنايا .

على الفور جرى خلفها بعض الشـرطة السـريين المندسـين فى جموع الواقفين .. منعوها .. أعادوها إلى حيث كانت .. أخذت تبكى ، ورغم بكائها ... فقد ابتسم زوجها ، و شد على يدى فرحاً ، قائلاً :

ـ هل سمعتها ؟ ... لقد نطقت ... تكلمت .. الحمد لله .. الحمد لله .

باركت له .. و لها ، و سرح خيالى فى أسـرى الكويت و شبابه المفقود بالعراق ، و تساءلت مع الجميع :

ـ ألم يحن الوقت لإطلاق سراحهم ؟

هرولة ! ..

ذات صباح مشرق بديع ... أسرعتُ نشطاً لأتريض بحديقة منزلى ، التى رغم صـغرها ، فيوجد بها ممشـى طويـــــل على جانبيه تتفتح مجموعات من الزهور زاهية الألوان ، و ورود زكية الرائحة .

وسط هذا المنظر الساحر ، أسير بالممشى يومياً ، ذهاباً و إياباً ما يقرب من السـاعة ؛ تنفيذاً لنصـيحة طبيبى المعالج ، فيغنينى ذلك عن المشـــــى للتريض خارج المنزل ، فلم تعد الآن أرصـفة الشـوارع تصـلح للسـير عليها باطمئنان أو دون توخى الحذر ؛ خشـــية التعثر فى حجر ، أو السـقوط فى بالوعة نُزِعَ غطاؤها .

أحياناً كثيرة ، كنت أتوقف عن السـير لأسـتريح قليلاً بالجلوس على أحد المقاعـد المتناثرة بالحديقة ، فتعطينى تلك اللحظات أوقاتاً طيبة للتأمل فى صنع الله !. أعيش فى جو التأمل هذا بينما تصـل إلى أذنى أصوات موسيقية جميلة تنبعث من شـدو الطيور الواقفة على أغصـان الأشـجار ... عصـافير تزقزق فرحاً ، و بلابل تغرد طرباً ، وهديل يمام يسـبح حمداً ، بالإضـافة إلى موسـيقى مناجاة عصـافير الكناريا بعضـها لبعض وهى داخل القفص المعلق بالشـرفة ، و كأنهم جميعاً يشـتركون فى عزف سيمفونية رائعة يؤدونها بتمكن ، رغم افتقادهم للنوت الموسيقية .

فى ذلك الصباح المشرق الجميل ... و بينما أنا فى جلســـة التأمـــل الوادعة لأســتريح ، إذ أنتبه فجأة ، فالموســيقى انقلبت نشــازاً ؛ لأن بعض العازفين أحدثوا صخباً. التفتُّ يمنة ويسرة ، لاستطلع الأمر ، و لأبحث عن الخطر الذى داهمهم ، لأبعده عنهم ، فتعود إليهم الطمأنينة .

اكتشــفت أن الصــخب آتٍ من ناحية قفص عصــافيرِ الكناريا ، وقفت وأمعنت النظر إليه ، لم يكن فى الأمر خطر ، كل ما حدث أن ضـــيفاً من شــاكلتهم قد حلَّ عليهم، محاولاً الدخول إليهم، كان هذا الضــيف عصــفوراً ريشه بلون زاه ، لكنه يختلف عن لون بقية العصافير ، صوته جميــل وقوى ، يحدثهم فيردون عليه جميعاً ، لا أدَّعى فهم لغتهم ، لكن هرولة الضـــيف و تنقله الســريع على جنبات القفص ، باحثاً عن منفذ ليدخل إليهم عرَّفنى أنه فى شوق و ولع و إصرار ؛ ليكون بصحبتهم بالداخل .

تساءلت و أنا بجلسة التأمل هذه :

. ما الدافع يا ترى كى يرغب العصفور فى الدخول إلى القفص بإرادته مضحياً بحريته ؟

ــ هل لجوعــه و عطشـــه ، لا سيما أن الماء و الغذاء يظهران بوفرة داخل القفص ؟

أجبت على تساؤلاتى بالنفى . فحديقتى و الحدائق الأخرى المجاورة يوجد بها الماء و الغذاء بوفرة أيضاً .

مرة أخرى عدت لتساؤلاتى :

ــ أم هى رغبة فى إشباع حاجته الغريزية ، دفعته للبحـــث عن شريكة لحياته داخل القفص ؟

ـ أم يا تـرى خدعته مظاهر الثراء و التحضر التى تعيشها عصافير الكناريا ، حيث يتوافر الطعام لديهم ، و يسكنون قفصاً جميلاً ؟

أجبت على تساؤلات هذه المرة ، بقولى :

ـ ربما .

أســـرعت بالنداء على ابنى ليشـــاهد هذا المنظر الفريد و الغريب ... عصـــفور طليق حر يحاول دخول القفص برجليه !. شـــاهد ابنى المنظر من النافذة ... فتعجب ثم ابتسم ، بعدها أسرِع إلى الشرفة ومعه ملاءة صغيرة من القماش ... اتجه بخفة نحو القفص محاولاً الإمســـاك بالعصـــفور ، لكن العصـفور يشـعر به و يطير عالياً إلى أشـجار الحديقة ، ثم ما يلبث أن يعود مهرولاً للقفص مرة أخرى وينهمك بكل حواســه محاولاً دخوله، فلم يشــعر بابنى وهو يقترب منه ثانية ، و يلقى بالملاءة عليه ، متمكناً من الإمســاك به و يودعه القفص .

يومياً كان ابنى يتابع ـ بسعادة ـ حال العصفور، فيجده يأكل ويشرب ويتزوج ... لكن مع مرور الأيام يصبح صوته خافتاً ولم يعد قوياً كما كان ثم يلاحظه منطوياً لا يشارك بقية العصافير تغريدهم .

و رغم أن ابنى كان يستعد فى تلك الأيام لعقد قرانه و زفافه على عروسه ، و الانتقال لشقة الزوجية الجديدة ، فمن المفروض أن يكون فى أوج سعادته ، إلا أننى لاحظت عليه مســحة من الحزن كانت تكســو وجهه عندما كان يتأمل ما صار إليه حال العصفور الذى هرول ليدخل القفص!.

الحصة الأخيرة ! ..

عندما كنت بالمرحلة الثانوية ، كانت صلتى وطيدة بمُدرسِّى اللغة العربية ، فأنا رئيس لجماعة الصحافة ، والمُقَرِّر لجماعة الخطابة ، فضلاً عن عضويتى بجماعة الشعر . و أذكر حين كنت فى السنة الأولى أن الأستاذ عوض مدرس اللغة العربية كان يصطفينى من بين تلاميذ الفصل لأتحدث أمامهم فى الحصة المخصصة للإنشاء الشفهى والتى كانت تقع فى الحصة السابعة والأخيرة بجدول الحصص يوم الثلاثاء كل أسبوعين ، حيث
كانت حصة التعبير أو الإنشاء تُخصص مرة فى الأسبوع للإنشاء التحريرى و مرة أخرى فى الأسبوع الذى يليه للإنشاء الشفهى .

فى حصة الإنشاء الشفهى ، يتلاحظ أن الأستاذ عوض كان لا يبذل فيها جهداً يُذكر ، اللهم إلا كتابة التاريخ الهجرى و الميلادى بخط واضح، ثم يكتب فى وسط السبورة بخط رقعة جميل عبارة " إنشاء شفهى " وأسفل منها يكتب عنوان موضوع الإنشاء المراد التحدث عنه ثم يسأل التلاميذ :
ـ من يريد التحدث ؟

كالمعتاد لا يرفع أحد منهم إصبعه ، فهم فى تلك الحصة يقاومون النعاس بعد أن حل بهم التعب فى نهاية اليوم الدراسى. عندئذ يشير الأستاذ عوض بإصبعه نحوى ـ سواء رفعت إصبعى أم لم أرفعه ـ لكى أقف مكانه بالفصل ، و أتحدث فى الموضوع الذى طرحه .

بعدها يسير الأستاذ يسبقه كرشه الضخم متجهاً إلى آخر موقع بالفصل ، و هو يجر كرسـيه خلفه ، ثم يجلس مُسـنِداً ظهر الكرسـى إلى الحائط ... مستمعاً لى طوال الحصة. ولُطفاً منه فإنه لم يقاطعنى أبداً ؛ ليصحح لى خطأ لغوياً وقعت فيه ، بل كان يتركنى أسترسل فى الحديث ، و كان هذا يسعدنى ويشبع غرورى لإمكانى التحدث طوال زمن الحصة، بينما يفشل أى تلميذ آخر فى التحدث أكثر من دقائق معدودة .. ولعل ذلك كان سـبب اختيار الأستاذ عوض لى دائماً !.

وقتها لم أكن أهتم بموقف بعض التلاميذ الذين كانوا ينامون أثناء حديثى ، كما لم أكن أكترث بمداعبات بعضهم بقولهم لى :

- وحياة والدك اخفض من صوتك قليلاً .. فنحن لا نستطيع النوم منه !.

وبالطبع لم أكن أجيبهم لطلبهم ... بل كنت أعاندهم و أزيد من ارتفاع نبرة صوتى، خاصة أن الموضوعات التى يختارها الأستاذ عوض كلها كانت تتحدث عن الوطنية ، حيث المشـاعر الحماسـية الملتهبة .. فضـلاً عن عضويتى بلجنة الخطابة التى جعلت لسانى مُفوَّهاً و طلِقاً!!.

ويكفينى فخراً أن الأستاذ عوض ـ بعد انتهاء حديثى ـ كان يشكرنى و يوجه لى الثناء!. وهكذا فإن حصة الإنشاء الشفهى كانت تسعدنى وكنت أنتظرها بشوق زائد .

لكن شـــعورى نحو هذه الحصـــة تبدل فجأة ، بعدما علمت من تلميذ يجلس بنهاية الفصل أنه سمع شخيراً صادراً من الأستاذ عوض أثناء استغراقه فى النوم وهو جالس على الكرسى فى نهاية الفصل ، لم اصدق هذا التلميذ، فالأســتاذ كان قد أثنى علىَّ كثيراً عقب الانتهاء من كلمتى فى تلك الحصـــة بالذات ، لكننى اضــطررت إلى تصــديقه بعد أن أكد حديثه تلاميذ آخرون يجلسون بجواره.

بعدها فهمت لماذا كان يضـع الأسـتاذ عوض نظارة الشـمس على عينيه فى كل مرة كان يستمع فيها إلى حديثى و هو بآخر الفصل !.

لتذكرونى !

. سعيد ؟ ... أنت أنت لم تتغير .

. جوهر ... يا أهلاً ... يا أهلاً ... لك وحشة كبيرة .

بشارع صفية زغلول بوسط الإسكندرية تقابلا مصادفة، تعانقا ، فمنذ سنوات الدراسة بمصر الجديدة لم يتقابلا . أصبح سعيد مهندساً بإحدى شركات الإسكندرية، بينما عمل جوهر على إحدى البواخر بحاراً يجوب العالم. يسأل كلاهما الآخر عن أحواله الاجتماعية ... أجاب سعيد بأنه تزوج ، و لديه ولدان الآن ، و أفاد زميله بأنه لا يزال يبحث عن ابنة الحلال .

ـ هذه الدقائق بالطريق لن تشبعنى منك ... إننى أدعوك لتناول الغداء معى فى أحد المطاعم الفخمة ... لا تنسى أن راتبى من المركب بالعملة الصعبة !.

يحاول سعيد جاهداً الإفلات منه ؛ بحجة أن زوجته و الأولاد ينتظرونه على الغداء ، فلا يفلح . يدخلان مطعماً مشهوراً قريباً منهما ، لم يدخله سعيد من قبل .

يجلسان على مائدة بالركن وسط نباتات متسلقة بعيداً عن زبائن المطعم ... يطلب جوهر أطعمة غالية الثمن ..

بينما عينا سعيد ـ رغم علمه بأنه مدعو ـ تبحثان عن الأثمان المكتوبة بقائمة الطعام أولاً ، ثم ينتقى أرخصها ... فى لحظـــات انتظـــار إحضار الطعام إلى المائدة ظل الاثنان يتحدثان و يضحكان.

تذكرا بعض النوادر والمقالب التى اشتهر بها جوهر مع زملائه بالفصـل.. لم يترك واحداً إلا و كان معه نادرة ، يسأله سعيد فى براءة :

. لِمَ كنت تحب عمل المقالب مع زملائك ؟

ـــ يقول أهلى أن هذا فى دمى منذ طفولتى ، و ربما أفعل ذلك كى يتذكرونى !.

. حتى أنا الذى كنت أجلس بجوارك ، لم ترحمنى من مقالبك .

. معك أنت ؟ ... لا أتذكر.

ـ هل نسيت ؟ ...هل نسيت ترجمة القصة الإنجليزى التى كانت مقررة علينا ... عندما شـــكوت لك أننى لا أســـتطيع مســـايرة مدرس الإنجليزى لأن القصـــة بها كلمات صـعبة كثيرة ، يضـيع وقت اسـتذكارى فى البحث عن الكلمات الصـــعبة بالقاموس ، فتطوعت أنت مشـــكوراً بحجة إجادتك للإنجليزية ، وأخذت القصـــة منى لتترجم الكلمات الصـعبة بها ، شـكرتك كثيراً وقتها، وبعد ثلاثة أيام أعدتَ الكتاب وتصفحتُ أوراقه فوجدتك قد كتبت بالقلم الرصاص ترجمة لبعض الكلمات فى كل صفحات الكتاب .. ساعتها قبلتك شاكراً قائلاً لك "

هذا الجميل لن أنســـاه أبداً " وعندما ذهبت للمنزل وجلســـت مســـاءً
لأســـتذكر الإنجليزى وجدتك لم تترجم أية كلمة صـــعبة ... الكلمات التى
ترجمتها فى كل الصفحات
هى كلمات سهلة ومكررة ، ولا تتعدى العشر كلمات ، كانت الكلمات

NO , IS ,THE , SHE , HE ,ON , IN , YES ...

ســاعتها غضــبت منك كثيراً ... لكن بعدها بســنوات كلما أتذكر تلك الواقعة أضحك .. و أتذكرك بالخير ، و أود أن أعرف أخبارك .

ـ الحمد لله .. أنك تذكرنى بالخير على أفعالى هذه .

ساد الصمت بينهما لحظات ...فقد امتلأت المائدة بأصناف الطعام التى طلبوها ... كان الطعام شـــهياً ... فانهمكا فى الأكل ، ولما قاربت معدتهما على الامتلاء ، عادا للحديث ثانية .

قال سعيد وهو يبتسم :

ـ وهل تتذكر ما كنت تفعله عندما كان يستفسر أحد المدرسين عمن يستطيع الإجابة عن ســؤال يطرحه ؟ ... كنت ترفع إصــبعك لأعلى حتى يراك المدرس ، فإذا طلب منك الإجابة أسـرعت بالقول : لسـت أنا المسـتعد للإجابة ، بل سـعيد جارى و لكنه خجول يا أسـتاذ ..فعلتها مع مدرس اللغة الفرنسـية الذى سـأل من مِنَ التلاميذ حفظ تصـريف أحد الأفعال ..و لم أكن قد حفظته وأخبرتك بذلك ، بل كنت أخفى رأســـى خلف ظهر التلميذ الجالس أمامى حتى لا يرانى المدرس، ويصـــدقك المدرس فيقول لى : لا تخجل يا سعيد .. تشجع ،

وتخفى أنت ابتســامتك بيدك أثناء مشــاهدتك لى و أنا أتلعثم ولا أســتطيع الإجابة .

يرد عليه جوهر مازحاً :

.كنت أدفعك لحفظ دروسك و لكى تترك الخجل !.

و يعاودان الضحك . ثم يستكمل سعيد حديثه :

. و هل تتذكر أننى كنت سأطرد من المدرسة بسببك ؟

. أنا ؟ .. لا أتذكر شيئاً كهذا ... كيف ؟

ـــ عندما سأل مدرس اللغة العربية التلاميذ فى حصة الإنشاء الشفهى عمن يريد أن يتحدث ، وكان الموضوع " قصة كفاح "... و طبعاً لم أحاول أن أرفع إصبعى ، فأنا ضعيف فى مادة اللغة العربية ، فضلاً عن عدم إجادتى الحديث الشـــفهى .. فإذا بك ترفع إصـــبعك لأعلى كالمعتاد ، وتخبر المدرس بأن سعيداً لديه " قصة كفاح " جميلة يريد أن يقولها ... ويدعونى للوقوف أمام التلاميذ ...

و هنا ينفجر جوهر ضاحكاً ، و يقول :

ــــــ هذه الواقعة تذكرها .. تذكرها جيداً .. لقد وقفت أنت أمام التلاميذ محاولاً محاكاة نداء باعة السميط قائلاً :

" سميط وبيض .. سميط وبيض" فى تلك اللحظة دخل ناظر المدرسة الذى سمعك و هو يمر بالخارج ، فاعتقد أنك تهرج فأمر بفصلك من المدرسة لحين حضور ولى أمرك ، ولم يرحمك إلا بعد أن عرف أن هذا النداء كان فى " قصة الكفاح " ، التى ترويها للتلاميذ ... و هى قصة تلميذ يبيع السميط و البيض بمحطة القطار المجاورة لمسكنه ، و ذلك بعد انتهاء يومه الدراسى ؛ ليساعد أسرته .

.كانت أياماً جميلة ... ليتها تعود من جديد .

. الساعة قاربت على الخامسة مساءً ... مر الوقت سريعاً .

و يطلب جوهر من المشرف على الخدمة " فاتورة " الحساب ، فيقدمها له ، وتبين أنه مبلغ كبير ، يتحسس جوهر جيوبه ، باحثاً عن حافظة نقوده فلا يجدها ... يطلب من زميله الانتظار دقائق لإحضار الحافظة من التى نسيها بالفندق القريب من المطعم ... يُحرج سعيد ، و يصمم على دفع الحساب هو ، و يحمد الله أنه معه اليوم ما يكفى للسداد ... ويشكره جوهر ويداعبه . وهما ينصرفان . بقوله :

. هل يا ترى ستذكرنى بالخير عندما تتذكر هذه الواقعة أيضاً ؟

. طبعاً ...سأتذكرها و أتذكرك .

و لم يُفصح إن كان تذكره سيكون بالخير أم لا .

تمت بحمد الله

فهرس

Contents